القسم الثالث

المسلمون فى عالم متعدد

تمهيد : التنوع سنة الحياة .

١ ـ الموقف الإسلامى من العولمة .

٢ ـ القيم الاجتماعية والتفاعل الثقافى .

٣ ـ من قضايا الحوار بين الأديان :

(أ) الحوار الإسلامى المسيحى .

(ب) حرية الاعتقاد والاعتراف بالآخر .

(جـ) حوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

تمهيـد

التنوع سنة الحياة :

عندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم أبا البشر أراد لأبنائه من بعـده إلى قيام السـاعة أن يكونوا مختلفين فى أجناسهم ومعتقداتهم ولغاتهم . ولو شاء الله لجعلهم جميعًا متساوين فى كل شىء - كما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (١) .

ولكنه سبحانه شاء أن يجعلهم مختلفين :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ (٢) .

ولكن هذا الاختلاف والتنوع فى الجنس البشرى لا يمس جوهر الإنسان بحال من الأحوال. فالإنسان كان وسيظل جوهره واحدًا فى كل زمان ومكان . والتنوع القائم فى الجنس البشرى ميزة ونعمة وليس عيبًا ونقمة. فالحياة بدون هذا التنوع لن يكون لها طعم ولا لون . ومن أجل ذلك أراد الله للناس أن يكونوا متنوعين فى تفكيرهم ومشاعرهم وعقائدهم ولغاتهم وأجناسهم

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) سورة هود : ١١٨ ، ١١٩.

لا لكى يتباعدوا ويتباغضوا ويتنازعوا ، ولكن لكى يتعارفوا ويتعاونوا ويتنافسوا فيما بينهم فى كل ما يعود عليهم بالخير ، فتنتعش الملكات وتبرز المواهب فيتولد الإبداع والابتكار، وبذلك تنهض الأمم ويرتقى الناس فى سُلَّم الحضارة .

وشأن الأفراد فى ذلك شأن الأمم . فقد أراد الله أن تكون لكل فرد شخصيته المستقلة التى تميزه عن غيره ، وأن يكون له طموحه الخاص لتحقيـق ذاته . ولتأكيد ذلك أعطانا الله رمزًا حسيًّا يعبر عن ذلك ، فلا يوجد اثنان فى هذا الوجود يتفقان فى بصمة إبهامهما ، ولا يوجد توءمان ولدا معًا وعاشا معًا يتفقان فى كل شىء، فلكل منهما شخصيته وتفكيره ومشاعره وطموحاته.

وقد أنعم الله على الإنســان بنعمة العقل ليدبر من خلاله أموره العامة والخاصة فى هذه الحياة . ونظرًا لأن الله قد منح الإنسان فى الوقت نفسه الحرية فى اتخاذ قراراته بنفسه فإنه قد يسىء استخدامها فيحدث النزاع والشقاق وتشتعل الحروب بين الناس .

وهنا يكون البشر فى حاجة ماسة إلى صوت العقل وحكمته ليعود بهم مرة أخرى إلى رشدهم - ولو إلى حين - ليتجهوا نحو التعاون والتســابق فى الخيرات . وهكذا نجد أن المجتمع الإنســانى فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى العقل لا يستطيع أن

يتخلى عن الحرية . ومن هنا فإنه فى أشـــد الحاجة إلى إقامة التوازن بينهما من أجل خير الناس وسعادتهم .

والمسلمون فى هذا العالم شأنهم شأن الأمم الأخرى . فهم لا يعيشون وحدهم على هذا الكوكب الأرضى منعزلين منغلقين على أنفسهم حتى لو أرادوا . إنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الإنسانى ، يتبادلون المنافع مع غيرهم ويتعاونون معهم فى كل ما من شأنه أن يعود على الجميع بالخير ، ويعمل على ترسيخ أسس السلام والاستقرار فى العالم .

والمسئولية عن هذا العالم تقع على عاتق المجتمع الإنسانى كله. والمسلمون يتحملون نصيبهم من هذه المسئولية ولا يستطيعون أن يتنصلوا منها. ونظرًا لأن الرياح لا تهبُّ دائمًا حسب ما تشتهى السفن فإن عالمنا المعاصر تهبُّ عليه الرياح العاتية والأعاصير من كل جانب ، الأمر الذى يتطلب مزيدًا من الجهد ومزيدًا من التعاون من أجل التغلب على كل ما يعترض طريق الناس فى حياتهم داخليًا وخارجيًا من عقبات. وأكبر عقبة تصادف عالمنا المعاصر تتمثل فى شهوة الهيمنة التى توجه سلوك بعض القوى العظمى فى هذا العالم .

ولا شك فى أن العالم الإسلامى – الذى هو جزء لا يتجزأ من العالم – يتأثر بما يدور فى هذا العالم من تطورات سلبًا أو

إيجابًا ، وبخاصـــة فى عصرنا الحاضر ، عصر العولمة التى لا يستطيع أحد أن يوقف مسيرتها . ومن هنا فإن عليه أن يقرر لنفسه ماذا يريد وأى طريق يسلك ، ومن ناحية أخرى فإن عليه أن يشارك مشاركة فعالة فى الجهود الدولية المبذولة من أجل مزيد من التعاون ومزيد من التضامن بين كل البشر لإنقاذ سفينة البشرية من هلاك محقق لن ينجو منه أحد .

وفى ضوء هذه الحقائق نتناول بالبحث فى الصفحات التالية الموقف الإسلامى من العولمة ومن الجهود المبذولة فى الحوار الدائر بين الحضارات والأديان .

* * *

(١)

الموقف الإسلامى من العولمة

لقد شـــهدت العاصمة النمساوية فيينا فى منتصف شهر نوفمبر عام ٢٠٠٥م مؤتمـــرًا دوليًا نظمته وزيرة الخارجية النمساوية حول موضوع: "**الإسلام فى عالم متعدد**". وقد دعيت إلى هذا المؤتمر والمشاركة فيه بمحاضرة عن "**الموقف الإسلامى من العولمة**"(١). ولعله يكون من المفيد أن أطرح تصورى - الذى عرضته فى المؤتمر - على القراء الأعزاء . فلعل ذلك يساعد على توسيع دائرة ثقافة الحوار بين العالم الإسلامى والغرب على أسس متينة فى عالم لم يعد فيه مجال للانعزال والتقوقع .

ولا شك فى أن العولمة ذات وجوه متعددة وأبعاد مختلفة . ولا شك أيضًا فى أن تفسير العالم الإسلامى للأحداث والتغيرات التى يشهدها عالمنا المعاصر نتيجة للعولمة يختلف بطبيعة الحال عن تفسير الغرب لها وفهمه إياها . فالعولمة فى تصور القوى المهيمنة فى عالمنا تعنى الرخاء، إن لم يكن الرفاهية ، كما تعنى المزيد من فرص التنمية ،وتبشِّر بحاضر مضمون ، وتعد بمستقبل

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة فى الأصل بالألمانية. وقام بترجمتها إلى العربية د . مصطفى ماهر .

مشرق . وفى المقابل تعنى العولمة بالنسبة إلى الفقراء والمحرومين من القوة حاضرًا يخيم عليه اليأس والإحباط وحياة لا مستقبل لها من الناحية العملية .

وقبل أن أتناول الموقف الإسلامى من العولمة أود أن أشير أولاً بإيجاز إلى العواقب العامة الناجمة عن العولمة بالنسبة لعالمنا، فلعل ذلك يساعد فى تمهيد السبيل لتفهُّم الموقف الإسلامى من العولمة على نحو سليم بعيدًا عن سوء الفهم والتأويلات التى لا محل لها .

إن العولمة إذا كانت تبشِّـــر الجميع بمستقبل ينعمون فيه بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان فإن الممارسة لذلك تبدو مختلفة تمامًا. ومن هنا يتبين أن هناك أمرًا واحدًا مؤكدًا وهو أن العولمة بدلاً من أن تؤدى إلى بناء النظـــام العالمى الجديد الموعود فإنها قد أدت إلى تعميق مشكلات عالمنا . وهذا أمر يظهر بوضوح فى تعميق الفجوة المتعاظمة باستمرار بين الأغنياء والفقراء ، وفى التدمير المتزايد للبيئة ، وفى انتشـــار الإرهاب انتشارًا واسعًا بمختلف صوره وأشكاله .

ولكن الأمر الذى يمكن أن يلحظه المرء فى هذا الصدد هو أن احتجاجات معارضى العولمة فى شتى أنحاء العالم لا تنصبُّ أساسًا على تيار العولمة ذاته الذى لو أُحسن توجيهه لأدى إلى

فوائد للجميع ، وإنما تنصبُّ على الصورة الحالية للعولمة التى أدت وتؤدى إلى العواقب المشار إليها ، وهى بلا شك صورة لابد من تغييرها إذا أريد للبشرية كلها أن تنعم بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام .

وإذا كانت العولمـــة تؤدى إلى تحطيم الحواجز المكانية والزمانية بين الأمم والشعوب فإنها لا يجوز أن تقضى على التعددية الدينية والحضـــارية ، فهذه التعددية ضرورية ، ومن شأنها أن تثرى تيار العولمة . أما إذا اختفت التعددية فإن ذلك يعنى تهديدًا خطيرًا للسمات الحضارية التى تتميز بها كل أمة من الأمم وما يترتب على ضياع الهوية من مخاطر ليست بالتأكيد فى صالح البشرية .

وبعد أن خبر المسلمون - وبخاصة فى القرن الماضى - مختلف التيارات السياسية والثقافية للحضارة الغربية شعروا منذ مدة طويلة بالحاجة الملحّة لتجـــديد ثقافتهم وأيقنوا أن الحل الطبيعى يتمثل فى التعددية الثقافية . ويرجع ذلك إلى أن الثقافة الإســـلامية منذ بدايتها قامت على أســـاس من احترام مختلف الثقافات ، وتطورت من خـــلال التفاعل والحوار مع الشعوب الأخرى التى التقت بها .

ومن أجل ذلك أكد الفيلسوف العربى الشهير ابن رشد - الذى يعرفه الغرب معرفة جيدة منذ العصور الوسطى- ضرورة دراسة ثقافات الأمم الأخرى ، بل جعل ذلك واجبًا شرعيًا . وقال : « **فإن كان فيها ما يتفق مع الحق أخذنا به وشكرناهم عليه ، وإن كان فيها ما لا يتفق مع الحق لم نأخذ به وحذَّرنا منه وعذرناهم** » ، نظرًا لأنهم عاشوا فى ظل ظروف مختلفة عن ظروفنا .

ويمكن القول بأن المسلمين يستندون فى حوارهم مع الثقافات الأخرى إلى المبادئ التالية :

١ - ينظر المسلمون إلى الثقافات الأخرى - سيرًا على نهج ابن رشد أيضًا - نظرة متسامحة ومتفتحة ، وفى الوقت نفسه نظرة نقدية . وبناء على ذلك فإنهم يقبلون كل ما هو إيجابى فى هذه الثقافات ويرفضون كل ما هو سلبى فيها .

٢ - يتمسك المسلمون بمبدأ ضرورة الحفاظ على هويتهم الثقافية . ومن هنا يهتمون اهتمامًا كبيرًا بالحفاظ على خصائص ثقافتهم وحمايتها لأنها تمكِّنهم من تحقيق ذاتهم وصيانة حريتهم .

٣ - من منطلق عقيدتهم وحضارتهم يؤمن المسلمون بضرورة التعددية الدينية والثقافية ، ولهذا فهم على استعداد تام

للتعاون مع كل الأمم والشعوب فى جميع المجالات ، وهذا أمر ضرورى لترسيخ أسس السلام والحفاظ عليه فى العالم .

٤ - وترتيبًا على ذلك يرفض المسلمون رفضًا قاطعًا دعوى الصدام الحتمى بين الحضارات ، ويؤمنون بدلاً من ذلك بضرورة الحوار الدينى والحضارى على كل المستويات ، وبإمكان التعايش الإيجابى بين البشر جميعًا متمسكين فى ذلك بمبدأ عدم التمييز بين الناس على أساس من العرق أو الدين أو اللون أو الثقافة .

والمسلمون ، انطلاقًا من التزامهم بمبادئ التسامح والتفكير النقدى - كما أشرنا - مستعدون اليوم لأن يناقشوا على نحو إيجابى مطالب ومتطلبات عصر العولمة . وعلى الرغم من كل تجاربهم المخيبة للآمال مع الغرب فإنهم لا يزالون يحترمون قيم الثقافة الأوروبية ، ولا يزالون يعتبرون العولمة من حيث المبدأ ظاهرة تقدمية، -إذا أُحسن توجيهها- لأنها يمكن أن تتيح فرصة فريدة لمعرفة الأمم والثقافات عن كثب ، وللتعاون معها بطريقة بناءة من أجل النهوض بالمصالح الخاصة للشعوب المختلفة ومصالح البشرية جمعاء .

ومن هنا فإن المسـلمين لا يرفضون العولمة مسبقًا لأنها قادمة من الغرب . وفضلاً عن ذلك فقد تأثروا بها تأثرًا شديدًا بالفعل . ولكننا من أجل صالح حضارتنا ، أى : من أجل حريتنا وحقوقنا الإنسانية ، لا نريد أن نقبل العولمة برمتها قبول العبيد . إننا نحتفظ لأنفسـنا بالحق فى أن ننظر إليها مبدئيًا على نحو إيجابى .

وجدير بالذكر أن ابن رشد - كما هو معلوم - قد أحدث فى العصر الوسيط بآرائه التقدمية المستنيرة أثرًا قويًا . بل إن فلسفته قد أسهمت إسهامًا حاسمًا فى الوصول إلى عصر النهضة الأوروبية . وما من شك فى أن المسلمين بثقافتهم المنفتحة على العالم قد شاركوا بطريق غير مباشر بنصيبهم فى ظهور العولمة أخيرًا .

وأيًا كانت المؤثرات التى أثرت فى التطورات فى العصر الحديث وصولاً إلى هيمنة العولمة ، فإن الحقيقة الواقعة تؤكد أن العولمة قد غيرت الحياة تغييرًا حاسمًا فى شتى أنحاء العالم . ولكن الشكل الحالى للعولمة ، كما لوحظ بصفة عامة على نحو متزايد ، قد اتضح أنه يحمل فى طياته مخاطر جمة لأنه يدمر التضامن بين الناس تدميرًا متزايدًا . وليس هناك من يعرف هذا أفضل من المسلمين الذين يجرى فوق ظهورهم الصراع بوحشية وبلا رحمة على سيطرة العولمة سيطرة شمولية .

وينبغى أن ينظر إلى موقف المسلمين ، إذا أريد فهمه على وجه صحيح ، نظرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بوضعهم فى عالم اليوم ، وهذا أمر بالغ الأهمية ، لأن المسلمين يمثلون نحو خمس سكان العالم ، ولهم بناءً على ذلك - سواء اعترف المرء بذلك أو لم يعترف - أثر لا يستهان به فى مصير عالمنا . وهم ليسوا وحدهم فى إدانتهم العولمة المهيمنة حاليًا والتى تهدد مصير عالمنا . فهى مستمرة دون رحمة فى تدمير البيئة ، كما أنها بصفة خاصة تدفع بالفقراء على نحو متزايد إلى مناطق معزولة كئيبة . فما هو الرد الذى يمكن أن يتوقعه المرء على ذلك ؟

إن الصراعات المحتدمة فى عصرنا الحاضر ، ليست فى الواقع حروبًا بين ثقافات وأديان ، على الرغم من أن المتطرفين الذين لا ضمائر لهم فى المعسكرين يدَّعون ذلك ، جريًا وراء مصالحهم المادية ما فى ذلك أدنى شك . والحق أنها غير ذلك ، فهى صراعات هيمنة طائشة - على سبيل المثال : الصراعات حول احتياطيات النفط فى العالم - .

ونظرًا للكوارث السياسية والبيئية والطبيعية المتوالية ، لم يعد ممكنًا الاستمرار - عن طريق دعاية الترويج لمُثل العولمة - فى جعل المعايير المزدوجة والمظالم الفاحشة لهذا " **النظام العالمى الجديد** " أمرًا مقبولاً . فها هو نسيج هذا النوع من العولمة يتهرأ على نحو متزايد . ويرجع السبب فى ذلك بصفة

خاصة إلى ممارسة أسلوب لا يزال إلى اليوم منحازًا إلى جانب واحد يسمى بـــ" **محاربة الإرهاب** " . وهو أسلوب لا يأخذ فى اعتباره الأسباب الحقيقية للإرهاب ، بل يكتفى بمعالجة أعراضه الظاهرية فقط ، الأمر الذى لا يساعد على القضاء على الإرهاب، بل يعمل على زيادة انتشاره فى العالم .

والنظام الاقتصادى السائد – الذى لا يمثل فى الواقع إلا حق الأقوياء – يؤدى إلى القضاء على التضامن بين البشر. وما هـــذا الطريق فى نهاية المطاف إلا طريق مسدود يعنى انحسار الفطرة الأخلاقية فى الإنسان .

إننا جميعًا قد أصبحنا داخل شبكة العولمة . فهل أُحيط بنا فى داخلها فلا مخـــرج لنا منها ، ولا جدوى من أى محاولة للاحتجاج ؟ أم أن العولمة هى حقًا ما تدَّعيه لنفسها ، بمعنى أنها عملية توافق بين الأمم والشعوب وتجديد حضارى خلاق ؟ هل فى مقدور العولمة بالفعل أن تدلنا على طريق جديد للمسئولية الذاتية والمسئولية العالمية ؟ هل تعنى العولمة إمكانات جديدة للتعارف بين الشعوب والتنافس المثمر بينها ؟

إن من الثابت حتى الآن أن حياتنا وأعمالنا اليومية فى كل مكان تجرى فى إطار شبكات عولمية محكمة وفى ظل تبعية شديدة تشمل الجميع . وهناك تجاوز للحدود الزمانية والمكانية

بين مختلف البلاد والدوائر الثقافية يتزايد تزايدًا مطردًا . وهناك بالفعل نوع من " **فقدان حواجز المكان والعمل ورأس المال** " .

والسؤال هو : هل يعنى تجميع الشعوب والثقافات هذا فى عصر النزعة العولمية بالضرورة ظهور المجتمع الضخم الشامل الذى ينسلخ فى نهاية الأمر خطوة خطوة عن تراث الإنسانية الثقافى وقيمه ؟

إن المسلمين على كل حال مصممون على التمسك بثقافتهم وقيمها . ويؤمن المسلمون طبقًا لدينهم بأن شعوب العالم فى نهاية المطاف مكلَّفة - بحكم عقائدها الدينية - بالسعى إلى غاية نهائية واحدة هى السلام ، وهى تبلغ هذه الغاية من خلال سبل متنوعة لبناء ثقافاتها المختلفة .

وأود فيما يلى أن أعرض بإيجـــاز الموقف الإسلامى إزاء تحديات العولمة بأبعادها: السياسية والإعلامية والاقتصادية والثقافية :

١ـ البعد السياسى :

كثيرًا ما نسمع أن الغرب يريد أن ينشر قيم الديمقراطية والتعددية السياسية وحقوق الإنسان فى العالم بصفة عامة ، وفى البلاد الإسلامية بصفة خاصة ، وذلك على النحو الذى تحققت به هـــذه القيم فى العالم الغربى . والغربيون فى هـــذا الصدد

يتصورون أن هذه القيم تمثل بالنسبة للمسلمين شيئًا جديدًا كل الجدة . وفى هذا السياق يحلو لهم أن يتكلموا عن " قيمنا " وعن " القيم الغربية " . وهم فى تصورهم هذا يريدون عن طريق هذه القيم أن يدخلوا التحضُّر إلى العالم الإسلامى الذى يظنونه فى حالة من الهمجية البربرية .

وكان الغربيون فيما مضى من الزمان يحلو لهم أن يصفوا البلاد الأجنبية التى لا يفهمون لغتها وعاداتها بأنها بربرية . وكان اتخاذ هذا الموقف ممكنًا ما دامت هذه البلاد بعيدة ، ولم تقم بينها وبينهم علاقات وثيقة. أما اليوم- وقد تقاربت المسافات وأصبح العالم كله يكوِّن ما يسمى بقرية كونية - فلم تعد مثل هذه الإدانة السطحية الفجَّة مقبولة . وعلى من ألفوها أن يبدلوها - مهما صعب عليهم ذلك - بالسعى إلى تفاهم متبادل قائم على التسامح والاحترام ، وهذا أمر فى صالح الأطراف كلها .

والمسلمون على أى حال لا يرفضون إطلاقًا قيم الغرب السياسية . بل يفهمونها حق الفهم . ويرجع ذلك أيضًا إلى أن هذه القيم نفسها - وإن كانت فى سياق ثقافى مختلف - مألوفة تمامًا لديهم . فالديمقراطية معروفة لدى المسلمين باسم الشورى. والتعددية الدينية والثقافية مكوِّن حاسم من مكوِّنات ثقافتهم من بداية تاريخهم . وحماية حقوق الإنسان العامة تُعد مقاصد أساسية

للشريعة الإسلامية . وتتمثل هذه المقاصد فى ضمان حماية النفس والعقل والدين والمال والنسل .

وإذا كانت هذه المبادئ قد اعتراها الوهن - للأسف الشديد - نتيجة للضـــعف الذى طرأ على الحضارة الإسلامية فإن ذلك لا يعنى أن هذه القيم لم يعد لها وجود لديهم .

وليس لدى المسلمين اعتراض على أن يذكِّرهم الغرب بهذه القيم الأساسية . ولكنهم يرفضون تمامًا أن تُفرض عليهم بالقوة كما حدث فى السنوات الأخيرة فى بعض بلاد الشرق الأوسط - على سبيل المثال - . فالأخلاق ، كما هو معلوم ،، لا تُفرض بالإكراه بل بالإقناع والرضا .

والأمر المؤسف حقًا أن العلاقة بين القيم والتربة الثقافية التى تنمو فيها يتم تجاهلها. فالقيم الأساسية نفسها موجودة بشكل أو بآخر فى كل الأديان والثقافات ، ولكن تحقيقها يتم فى سياق هذه أو تلك من الثقافات التى لا يمكن أن تنفصل عنها .

٢ ـ البعد الإعلامى :

ومن الملحوظ أن انعدام الفهم وقلة الاحترام حيال الثقافة الإسلامية يظهران على نحـــو خاص وبشكل واضح فى البعد الخاص بالرأى العام العالمى الذى تسيطر عليه وسائل الإعلام الغربية الواسعة الانتشار . فالمرء لا يجد فيها أى اعتبار للحقيقة

الواقعـــة المتمثلة فى أن حرص المسلمين على حقوق الإنسان لا يقل لديهم أهميةً عن تلك التى يلقاها فى الغرب .

إن المسلمين يشعرون بأن تصوير وسائل الإعلام الغربية للاعتداءات العســكرية على البلاد الإسلامية يتم فى صورة مشوَّشة ، ويشكل جزءًا من استراتيجية قهر منظَّم . فلا يكاد أحد يتكلم عن ضحايا هذه الحروب العدوانية الذين لا يحصيهم عَدٌّ ولا عن تجريدهم من الإنسانية ، وإن تكلم فعلى نحو عابر ، ولا أحد يهتم بأسباب امتهان كرامة أُناس من البشر واعتبارهم من الإرهابيين دون دليل ثابت أو برهان واضح . وبدلاً من ذلك يوصف المعتدون بأنهم ضحايا .

وقد أدى هذا الوضع فى النهاية - على نحو أو آخر - إلى الاشتباه فى المسلمين جميعًا واعتبارهم إرهابيين إلى أن يثبت العكس ، على الرغم من أن عددًا ضئيلاً كل الضآلة منهم ينزع إلى التطرف ، وهــذه حقيقة واقعة يمكن أن نلاحظها فى كل الأديان . ولم تؤدِّ هذه التفرقة العنصرية إلا إلى زيادة الإرهاب. وقليلاً ما يستتر الهجوم على الإسلام فى وسائل الإعلام الغربية. وهكذا يهاجمون دينًا من الأديان العالمية الكبيرة الذى أدان منذ البداية كل نوع من أنواع العنف وعلَّم السلام ومارسه منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان .

ولم يحقق دعاة " **محـــاربة الإرهاب** " - الذين يتجاهلون أســبابه - إلا زيادة عدد الإرهابيين فى أقصر وقت أضعافًا مضاعفة .

٣ ـ البعد الاقتصادى :

من المشكلات الرئيسية التى تواجهها البلاد الإسلامية مشكلة ضعف الاقتصاد، ذلك الضعف الذى لا يتيح لهم إلا القليل من الإمكانات للدفاع عن مصالحهم .

والبعد الاقتصادى للعولمة يتمثل فى تكوين تكتلات اقتصادية كبيرة و هيئات متعددة الجنسيات ، أو متعدية الجنسيات، ومؤسسات مالية دُولية تمســك بيدها اقتصاد العالم . والمنظومة العولمية المهيمنة تزيد الأغنياء غِنًى وتزيد الفقراء فقرًا .

ولا يمكننا فيما يخص المسلمين أن نحمّل الغرب الذنب كله فيما يعانونه من مشكلات اقتصادية . فعلى المسلمين أن يكثفوا جهدهم لتحقيق تعاون أفضل بين بلادهم بعضها البعض . فحجم التجارة البينية بين البلاد الإسلامية حتى الآن لا يزيد على نسبة ٨% من تجارتها مع البلاد الأخرى .

ولا شك فى أن تحقيق تعاون اقتصادى أفضل بين البلاد الإسلامية من شأنه أن يمكّنها من إجراء الإصلاحات السياسية الملحة . ولن يكون ذلك فى صالحها وحدها ، لأنها عندما تصبح

شريكًا على قدم المساواة مع الشركاء الدوليين ستكون قادرة على أن تتعاون بشكل فعّال فى بناء نظام عالمى عادل يمكنه أن يتصدى بنجاح أكبر للكوارث السياسية والبيئية التى تهدد العالم .

٤ ـ البعد الثقافى :

من البديهى أن قيام المسلمين بتطوير الاقتصاد فى بلادهم مسألة لها أهمية حاسمة . ولكن الحفاظ على هويتهم الثقافية يُعد أمرًا لا يقل عن ذلك أهمية . ولهذا فإن المسلمين عندما يدافعون عن حقوقهم وعن حريتهم فإنهم يضعون فى أولويات اهتماماتهم المسائل التى تمس البعد الثقافى للعولمة . وإذا كانت العولمة تهدف إلى تصدير القيم الغربية إلى العالم الإسلامى ، فإن المسلمين يحتفظون - فى كل الأحوال - لأنفسهم بالحق فى أن ينظروا إلى هذا الموضوع نظرة فاحصة نقدية ، بحيث لا يأخذون مما جاء فيها إلا ما كان فى رأيهم موافقًا للحق ، على نحو ما أوصى به ابن رشد منذ أكثر من ثمانية قرون من الزمان . ومن المعلوم أن كل ثقافة لها سماتها الخاصة التى تميزها عن الثقافات الأخرى . وحيوية الثقافات رهن بتنوُّعها وتفرُّدها .

والمسلمون مصممون فى كل الأحوال على الحفاظ على خصوصيتهم الثقافية ، ويسعون إلى الدفاع عنها . وينطبق هذا بصفة خاصة على التعاليم الأخلاقية الراسخة فى دينهم . ولهذا

فهم غير مستعدين لأن يستوردوا إلى بلادهم الآراء الغربية الخاصة بالحياة الجنسية المتحللة من القيود وبالاعتراف بالمثليين الجنسيين . وهم لا يرضخون لأى إكراه فى هذا الشأن . ويرون أن الحرية الشخصية وحقوق الإنسان تحول دون أن يخضعوا ثقافيًا لصالح ثقافة أخرى .

إن حرية الإنسان الحديث اللامحدودة يتبين - إن عاجلاً أو آجلاً - أنها وهمية وفارغة ، فهى تقود عند المبالغة وتجاوز الحدود إلى طريق مسدود . والحرية الحقيقية لا توجد إلا فى الالتزام . وهذا هو على أى حال المفهوم الإسلامى للحرية . وحدود الحرية تقوم على فطرة الإنسان الأخلاقية التى تنبهنا إليها تعاليم الدين . والمسلمون فى هذا الصدد يتمسكون بالحفاظ على كيان الأسرة الذى تهدده العولمة الحالية .

وعلى الرغم من أن المسلمين مصممون على التمسك بثقافتهم وقيمها، فإنهم يقدِّرون فى الحاضر كما كانوا يقدِّرون فى الماضى إنجازات الثقافة الغربية ما دامت تدافع عن حقوق الإنسان العامة والديمقراطية والتعددية السياسية ، وما دامت تنحاز إلى قيم العدل والسلام . ولكن المسلمين يشعرون بخيبة الأمل عندما يرون الغرب لا يحترم ثقافتهم ، بل يعمل فى كل مكان على فرض قيمه . ويرى المسلمون أن هذا الموقف ينتهك قيم التعددية السياسية والثقافية .

إن حيوية الثقافات هى التى تجعل البشرية - عن طريق تبادل الأفكار والتنافس فيمسا بينها - قادرة على القيام بأعظم الإنجازات . فالشعوب - طبقًا للتعاليم الإسلامية - قد خُلقت ليعرف بعضها بعضًا ، ولتعرف على هذا النحو نفسها أيضًا .

ويُعد هذا التعارف المتبادل بين الشعوب - على أساس من التسامح والاستعداد لتفهم كل جانب للطرف الآخر - شرطًا أوليًا ضروريًا للتوصل إلى تعايش إيجابى وتعاون مشترك بين الجميع فى عصر العولمة . ومن خلال ذلك يمكن وضع حد للكوارث البيئية والسياسية المتراكمة حاليًا ، كما يمكن الحفاظ على السلام العالمى وحمايته .

* * *

(٢)

القيم الاجتماعية والتفاعل الثقافى

فى إطار الأنشطة الثقافية التى قام بتنظيمها الجانب الألمانى بمناسبة دعوته ليكون ضيف الشرف فى معرض القاهرة الدولى للكتاب لعام ٢٠٠٦م كانت أول هذه الأنشطة ندوة [١] بعنوان : **(القيم الاجتماعية فى إطار التفاعل الثقافى)** ، وقد كان لى شرف المشـــاركة فيها . وفى السطور التالية نود أن نلقى بعض الضوء على هذا الموضوع البالغ الأهمية .

لا جدال فى أن القيم الإنسانية الأساسية تُعد قيمًا عالمية ينبغى مراعاتها والعمل بمقتضاها فى كل المجتمعات البشرية . وينطبق ذلك بطبيعة الحال على القيم الاجتماعية مثل العدالة التى تتضمن مبدأى الحرية والمساواة . ولكن الحضارات تختلف فى الطرق التى تسلكها لتحقيق هذه القيم ، وذلك طبقًا للسياق الخاص لكل حضـــارة . ومن هنا فإن أى حوار حضـــارى لا يراعى هذه الحقيقة يصبح حوارًا عديم الفائدة ولا يمكن أن يؤدى إلى نتائج إيجابية .

ولا شك فى أن القيم الاجتماعية تشكل أساسًا ضروريًا لكل مجتمع بشـــرى . وعلى الرغم من الاختلاف الحضارى لهذه

---

(١) أقيمت هذه الندوة فى معهد جوته بالقاهرة فى ٢٠٠٦/١/١٦م .

المجتمعات فإن هذا الاختلاف لا يجوز أن يفهم على أنه يمثل عائقًا أمام التواصل بين الحضارات . فالعكس هو الصحيح ، لأن التنافس بين الحضارات والتفاعل فيما بينها هو الذى يجعلها أكثر حيوية وأكثر ثراءً وأكثر انفتاحًا وأقدر على التواصل . ومن أجل ذلك وجدنا القرآن الكريم ينبه إلى أن الاختلافات بين البشر تُعد سبيلاً إلى التعارف والتواصل وليس مدعاة إلى النزاع والشقاق ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (١) . ومن هنا تحتاج الحضارات كل منها للأخرى .

وهناك علاقة وثيقة بين الحضارة والحرية ، فالحضارة تحتاج إلى الحرية لتزدهر وتنمو ، وفى الوقت نفسه فإن الحضارة تمكّن للحرية وتجعلها أكثر فاعلية. والقيم لا تتحقق إلا بالاختيار الحر للفرد أو الجماعة ، صحيح أننا نرث حضارتنا وقيمها ولكن علينا أن نعمل على اكتسابها بجهودنا الخاصة لكى نكون على وعى حقيقى بها . وبذلك نحصل على الهوية الضرورية لوجودنا الإنسانى .

ولذلك لا نستطيع ولا يجوز أن نفرض على الآخرين – سواء كانوا أفرادًا أو مجتمعات – قيمنا الخاصة . فالقيم لا يمكن توصيلها للآخرين إلا عن طريق القدوة وليس عن طريق القوة .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

إنها قيم تتطور فى خصوصياتها وعالميتها فى سياقات مختلفة للحضارات ويحصل عليها المرء عن طريق الثقافة .

وهذا التصور الأساسى للقيم الاجتماعية وشروط تحقيقها – التى تتمثل فى التسامح الدينى والحضارى والتعددية الثقافية – قد أرسى الإسلام قواعده منذ بداياته ، كما أن الجهود الهادفة إلى تكوين نظام اجتماعى تعددى عادل يُعد أحد أهدافه الرئيسية .

والهدف الذى ترمى إليه هذه الجهود للاتفاق على قيم اجتماعية فى الحوار الحضارى تتمثل بوجه خاص فى العمل على قيام تعايش سلمى إيجابى بين الحضارات عن طريق زيادة الفهم المشترك والاحترام المتبادل .

ويمكن أن يزعم المرء أن كلاً من الحضارتين الإسلامية والغـربية لديهما من حيث المبدأ نفس الأهداف ، أى : السلام والتقدم . ولكن الطرق التى يسلكانها للوصول إلى هذا الهدف مختلفة طبقًا لسياق كل حضارة .

فالحضارة الغربية تؤكد بوجه خاص على ضرورة إصلاح النظام القانونى ودعم الديمقراطية والإصلاحات السياسية وتطبيق حقوق الإنسان ، كما تؤكد بوجه خاص على مبادرات الجهود المدنية ، وعلى الفعل السياسى المنظم ، أما الحضارة الإسلامية فإنها من جانبها تؤكد على المسئولية الذاتية والمجتمعية وعلى

تكريس الجهود الخالصة لعمل الخير ، وتعمل على بلوغ نفس الأهداف لإصلاح المجتمع .

ومن المعروف أن المجتمع الإسلامى قد عاش قرونًا عديدة فى ظلال التكافل والتضامن الاجتماعى. وقد لعب الوقف الخيرى دورًا بارزًا فى تقديم مختلف الخدمات للمجتمع على كل المستويات التعليمية والصحية والثقافية والرعاية الاجتماعية للفقراء وطلاب العلم والأيتام وعابرى السبيل وغيرهم من أصحاب الحاجات . وقد تعدت الرعاية أيضًا إلى الحيوانات والطيور .

وتشتمل عشرات الآلاف من حجج الوقف الخيرى التى تحتفظ بهـــا وزارة الأوقاف على أمثلة نادرة لروح التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع . ولا تزال آثار الوقف الخيرى قائمة حتى يومنا هذا تنفيذًا لشروط الواقفين التى تلتزم وزارة الأوقاف بتنفيذها طبقًا للقاعدة الشرعية « **شرط الواقف كنص الشارع** » .

ومن ناحية أخرى أكدت الحضارة الإسلامية منذ بدايتها على قضايا الحقوق العامة للإنسان وعلى التعددية الحضارية . وهكذا وجدنا الإسلام يؤكد منذ البداية – على سبيل المثال – على المساواة المبدئية بين الرجال والنساء ويسعى لتحسين أوضاع

النساء بالتدريج واللاتى لم يكن لهن قبل الإسلام أى حقوق . ولكن فى حين أن العـــالم الغربى قد اهتم بوجه خاص بإجراء الإصلاحات السياسية والقانونية فإن العالم الإسلامى يؤكد ولا يزال أهمية التجذُّر لكل القيم الاجتماعية فى الدين الذى ينبغى أن يوجِّه من حيث المبدأ الحياة كلها .

وطبقًا للتصور الإسلامى فإن القيم الاجتماعية تفقد فى صراع الوجود قدرتها إذا لم تكن جذورها مترسخة فى الطبيعة الأخلاقية للإنسان والتى يؤكد عليها الدين . كما أن من المعلوم أن فلســـفة الحضارة قد بينت منذ زمن طويل حقيقة تجذُّر كل حضارة فى الدين . والآثار التى خلَّفتها الحضارات السابقة خير شاهد على ذلك . فكل ما تركه لنا قدماء المصريين من آثار – على سبيل المثال – يعبر تعبيرًا واضحًا عن رموز دينية، وهكذا الحال فى بقية الحضارات .

وهناك حقيقة مهمة ينبغى أن نوجه إليها الأنظار فى هذا الصدد ، وتتمثل فى أن كلاً من الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية لم تكن أى منهما بمعزل عن الأخرى على الرغم من الاختلافات بينهما . فحلقات الوصل بينهما كانت فى الســـابق ولا تزال حتى يومنا هذا قائمة وفاعلة . ويمكن أن نشير هنا بوجه خاص إلى التأثير القوى لفلســـفة ابن رشد التى أسهمت إسهامًا

لا يمكن تجاهله فى نشأة النهضة الأوروبية وقيام الحركة العقلية فى أوروبا ، كما أن التواصل مع الحضارة الأوروبية الحديثة لم ينقطع منذ عصر محمد على حتى الآن .

ومن الأمور التى ينبغى أن ننبه إليها فى هذا الصدد خطأ الاعتقاد بأن حقوق الإنسان تُعد إنجازًا أوروبيًا خالصًا . فإن المركزية الأوروبية فى الحوار الحضارى تؤدى إلى طريق مسدود . ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن المبدأ العالمى لحقوق الإنسان العامة يتطلب الاعتراف لكل الناس من حيث المبدأ بالمساواة فى القيم وفى الكرامة الإنسانية . وهذا يعنى أيضًا الاعتراف للآخر بنظرته الخاصة للحياة . ولذلك فإن على كلا الجانبين أن يبذلا الكثير من الجهود المشتركة من أجل ترسيخ قيم الاحترام المتبادل والاعتراف بالحقوق المتساوية والإقرار بالفروق وفهم الآخرين . والاتفاق على هذه الأمور – التى تعنى إدراك حقيقة الاختلاف بين الناس – يُعد – إذن – الخطوة الأولى للتفاهم .

وفى هذا الصدد تتبنى الحضارة الإسلامية – بوجه خاص– القيم الاجتماعية التى تدعو إلى التسامح الدينى والحضارى ، والتعددية الثقافية ، ونشر القيم عن طريق القدوة وليس عن طريق العنف ، والتأكيد على قيم الأسرة التى لا يمكن التخلى عنها ، وحماية حقوق الإنسان العامة . ويدور الأمر فيما يتعلق

بحقوق الإنسان الإسلامية العامة حول حماية النفس والعقل والدين والمال والنسل والأسـرة ، والتى تُعد مقاصد أساسية للشريعة الإسلامية . وقد تكون هذه القيم قد اعتراها الضعف نتيجة للتراجع الحضارى فى العالم الإسلامى، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة أنها لم تعد موجودة فى الضمير الإسلامى .

ويمكن تحقيق النظام الاجتماعى العادل - طبقًا للتصور الإسلامى - فى كل مجتمع يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر - كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم .

وإجمالاً لما سـبق نود أن نشير مرة أخرى إلى أن القيم الاجتماعية فى الحضارة الغربية - كما تتضح فى الحوار الحضارى - تتفق فى الأساس بصفة عامة مع قيم الحضارة الإسلامية وإن اختلفت مصادر هذه القيم فى كل حضارة . وينطبق ذلك بصفة خاصة على المبادرات المدنية ما دام الأمر فيها يدور حول الأعمال المسئولة للصالح العام للمجتمع ، وعلى التسامح بوصفه قيمة اجتماعية ، وعلى التعددية فى المجتمع الديمقراطى الذى تمثل فيه الحقوق الإنسانية العامة علامة بارزة وسمة أساسية .

وختامًا نود أن نشير إلى أن الإسلام قد تبنى منذ البداية ، ومن خلال تاريخه كله ، الحوار بين الحضارات وتكوين مجتمع متعدد الأديان والثقافات .

وإن أى مجتمع هذا شأنه – شرقيًا كان أم غربيًا – يضم مواطنين فاعلين ، واعين بمسئولياتهم ، واضعين التسامح هدفًا لهم، يكون بلا شك مجتمعًا قادرًا بدرجة عالية على إجراء حوار حضارى مثمر وتفاعل ثقافى ناجح من أجل مصلحة السلام العام للبشرية جمعاء .

* * *

(٣)

من قضايا الحوار بين الأديان

(أ) الحوار الإسلامى المسيحى (*)

ضرورته وشروط إنجاحه ومجالاته

١ ـ تمهيد : ضرورة الحوار :

لقد أصبحت قضية الحوار فى عالم اليوم قضية ملحة على جميع المستويات . فنحن نعيش فى عصر تشابكت فيه المصالح وتعقدت فيه المشكلات على نحو لم يسبق له مثيل . وقد أصبح البحث عن حلول لهذه المشكلات عن طريق الحوار أمرًا ضروريًا . وقد يكون الحوار محليًا أو إقليميًا أو عالميًا حسب طبيعة القضايا المثارة، وعلى كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها من مشكلات .

ومن هنا يمكن القول بأن الحوار قد أصبح ضرورة من ضرورات العصر للتغلب على المشكلات الواقعية فى عالمنا . والقضايا الدينية تُعد جزءًا لا يتجزأ من مشكلات عالمنا الواقعية، بل تُعد القضايا الدينية فى كثير من الأحيان بمثابة

(*) محاضرة ألقيت فى المؤتمر الدولى لحوار الأديان الذى عقد فى العاصمة السنغالية داكار عام ٢٠٠٤م .

الخلفية الفكرية لبقية المشكلات لما للدين من تأثير عميق فى نفوس الناس . هكذا كان الحال فى السابق ، ولا يزال الحال كذلك حتى اليوم رغم ما نراه فى كل مكان من مظاهر علمانية فى الشرق والغرب أو تصريحات سياسية تنكر هذه الحقيقة .

والحوار الدينى يُعد أيضًا جزءًا لا يتجزأ من الحوار بين الحضارات . فالحضارات فى كل مكان فى العالم قامت أساسًا على قاعدة من الدين . ويُعد الدين حتى اليوم فى نظر كتَّاب معاصرين فى الغرب أحد المكونات الرئيسية لأى حضارة بالإضافة إلى اللغة والتاريخ والثقافة .

ومن هنا يصف الغرب حضارته بأنها حضارة مسيحية كما نصف - نحن المسلمين - حضارتنا بأنها حضارة إسلامية . ومن أجل ذلك كله فإن الحوار الدينى لا يمكن عزله عن أشكال الحوارات الأخرى ، لأنه يتشابك معها بطريقة أو بأخرى تشابكًا ظاهرًا أو خفيًا أردنا أم لم نرد . وقد أكد هذه الحقيقة أحد علماء الأديان المعاصرين المستنيرين فى ألمانيا وهو الأستاذ هانز كونج بقوله :

" لن يكون هناك سلام فى العالم دون أن يكون هناك سلام بين الأديان ، ولن يكون هناك سلام بين الأديان دون أن يكون هناك حوار بين الأديان"[1] .

---

(1) Hans Kueng: PROJEKT Weltethos, P. 171, Muenchen 1990.

وإذا كان عالمنا يتجه إلى الحوار على المستويات الأخرى فمن باب أولى ينبغى أن يكون هناك حوار على المستوى الدينى بهدف القضاء على الكثير من مظاهر الصراعات التى تلعب فيها العقيدة الدينية دورًا خطيرًا . وإذا كنا فى الماضى قد شهدنا حروبًا صليبية صريحة يُرفع فيها شعار الدين، فنحن نشهد اليوم حروبًا مظهرها عرقى أو اقتصادى أو غير ذلك من مسميات ولكن خلفيتها دينية بالدرجة الأولى ، وإن أنكر البعض ذلك . وهناك أمثلة عديدة على ذلك فى عالمنا المعاصر .

* * *

٢ ـ شـروط الحـوار:

وقبل أن أدخل فى تفاصيل الموضوع المطروح وهو الحوار الإسلامى المسيحى أود أن أوضح أولاً شروط الحوار بصفة عامة وهو ما ينطبق فى النهاية على الحوار الدينى أيضًا.

الحوار كما هو معروف يقتضى أن يكون هناك **طرفان كل منهما ند للآخـر** . فالحوار بين طرف قوى يدرك مدى قوته ، وطرف ضعيف على وعى بضعفه ، يجعل الطرف القوى فى وضع يملى فيه شروطه على الطرف الضعيف الذى لا يكون لديه مجال للمناورة ، ومن هنا لا يكون هناك حوار ، بل يكون بالأحرى إرغامًا عن طريق القوة وإن كان فى الظاهر يأخذ شكل الحوار .

ويقتضى الحوار أيضًا أن تكون هناك **قضية** يتحاور الجانبان بشأنها ، ولابد فى هذه الحالة أن تحدد بدقة عناصر القضية حتى لا يكون الحوار دائرًا فى حلقة مفرغة مثل حوار الصم أو "الطرشـان" ، كل يتحدث بلغة مختلفة وبمفاهيم مختلفة لا تربط بينها أرضية مشتركة .

ويتطلب الأمر أيضًا **تحديدًا واضحًا لأهداف الحوار** حتى تكون هذه الأهداف دليل المتحاورين لا يحيد عنها طرف من الأطراف . ولا يجوز التقليل من أهمية هذا التحديد الواضح

للأهداف ؛ إذ بدونه سنجد كل طرف يغنى على ليلاه ، الأمر الذى يبعد المتحاورين عن إمكان الوصول إلى أى شىء مفيد .

ويضاف إلى ذلك ضرورة أن يكون هناك **مناخ مناسب للحوار** ينأى عن الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة ، ويتحرر من العقد النفسية سواء كان ذلك يتمثل فى عقدة التفوق فى جانب أو مركَّب النقص فى جانب آخر . فالنعرات الاستعلائية خطرها فى أى حوار لا يقل عن خطر الشعور بالدونية .

وهكذا نجد أن أى حوار يمكن أن يكتب له النجاح لا يجوز أن تكون غايته العمل على إلغاء الآخر، أو استبعاده، أو التقليل من شأنه ، أو الادعاء باحتكار الحق دون الآخر .

ويمكن القول بأن الحـــوار الدينى بالمعنى الحقيقى لهذا المفهوم لابد أن ينطلق بالإضافة إلى ما تقدَّم - **من الاحترام المتبادل والمساواة التامة بين الطرفين** ومن نظرة إنسانية شاملة تقوم على احترام الكرامة الإنسانية ووحدة الجنس البشرى وانتفاء الأنانية والفهم المتبادل بمعنى التسليم بحق كل طرف فى أن يكون مفهومًا من الطرف الآخر دون أى لون من ألوان التشويه أو التزييف .

* * *

٣ ـ موقف الإسلام من الحوار بين الأديان :

لقد انطلقت المبادرة الأولى إلى الحوار الدينى فى الأساس من الإسلام ، والقرآن الكريم يقول فى ذلك موجهًا الخطاب إلى النبى ﷺ متضمنًا المبادرة إلى الحوار الدينى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (١) .

فهذه الدعوة القرآنية دعوة صريحة إلى الحوار الدينى بين طرفين : الجانب الإسلامى وجانب أهل الكتاب من المسيحيين واليهود ، وهناك قضية يدور الحوار حولها وهى القضية المحورية فى الدين أساسًا وهى قضية الألوهية .

ولا يكتفى القرآن الكريم بمجرد المبادرة ، بل يرسم أيضًا أسلوب الحوار . فالحوار سيؤدى إلى مناقشات ومجادلات ، ولكنها ينبغى أن تلتزم بأدب الحوار . ومن هنا يقول القرآن فى ذلك :

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .

كما جعل القرآن الجدال بالحسنى أحد المناهج التى يتحتم على الدعاة إلى الإسلام اتباعها، لا مع أهل الكتاب فقط ، بل مع كل الناس :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١).

ويمتاز موقف الإسلام فى أى حوار مع الأديان الأخرى بميزة كبرى لا تتوافر لغيره من الأديان وهى إيمانه بكل الديانات السماوية السابقة . وهذه الميزة تجعله متحررًا من العقد والحساسيات والنفور الذى قد يشعر به الآخرون فى مثل هذه الأحوال .

ومن أجل أن يكون هناك حوار مثمر وتعاون وثيق بين الجماعات البشرية أيًا كانت انتماءاتها - دعا القرآن الكريم إلى ضرورة تعرُّف كل جانب على الجانب الآخر وتفهُّم مواقفه على قاعدة من المساواة التامة. وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

وهذه الآية تبرز المعنى الإنسانى العام لطبيعة الإسلام . فنحن نتعرف على الآخر من خلال تعرفنا على أنفسنا ، الأمر الذى يؤكد وحدة الإنسانية، وهى تلك الوحدة التى مصدرها الله . وقد أكد الإسلام هذه الوحدة تأكيدًا لا يقبل التأويل حين اعتبر أن الإساءة إلى أى فرد من أفراد الإنسانية تُعد إساءة إلى الإنسانية كلها ، وفى المقابل يُعد تقديم الخير إلى فرد واحد من أفراد الإنسانية بمثابة تقديم الخير إلى الإنسانية كلها . وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقد أكد القرآن الكريم أيضًا العلاقة الوثيقة التى تربط بين المسلمين والمسيحيين فى قوله تعالى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

(٢) سورة المائدة : ٨٢ .

وقد شعر المسلمون منذ البداية بهذه القرابة الروحية . ومن هنا كان تعاطف المسلمين مع روم الشرق المسيحيين - كما يقص علينا القرآن الكريم - . فقد حزن المسلمون حزنًا شديدًا عندما انهزم الروم المسيحيون أمام الفرس الوثنيين آنذاك . وواستهم آيات من الوحى القرآنى متنبئة بأن الروم سينتصرون على الفرس فى معركة قادمة. وقد حدث هذا النصر بعد ذلك كما تنبأ بذلك القرآن الكريم فى سورة من سور القرآن التى تحمل اسم " الروم " .

وأول من أجرى حوارًا مع المسيحيين فى الإسلام كان النبى محمد ﷺ . فقد أجرى حوارًا فى مسجده بالمدينة المنورة مع وفد من نصارى نجران بقيادة أسقفهم أبى الحارث . وكان حوارًا اتسم بأقصى درجات التسامح . فعندما دخل هذا الوفد إلى مسجد الرسول ﷺ اتخذ أعضاؤه لأنفسهم ركنًا فى المسجد وبدءوا فى أداء صلواتهم . وقد استفز ذلك بعض الصحابة . ولكن النبى ﷺ قال لهم : اتركوهم حتى ينتهوا من صلاتهم. وبعد انتهاء الصلاة جرى حوار هادئ بين النبى ﷺ وبين هذا الوفد . فقد شرح لهم النبى الإسلام وما يشتمل عليه من تعاليم ، ومن جانبه شرح الوفد ما تشتمل عليه المسيحية من تعاليم . وكان هذا الحوار نموذجًا يُحتذى ودرسًا فى التسامح للأجيال التالية .

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن الإسلام لم يقرّ فقط مبدأ الحوار بل دعا إليه ، كما وضع الشروط الكفيلة لإنجاح أى حوار على المستوى الدينى الذى هو أعقد أنواع الحوارات على الإطلاق ، لأنه لا يمس أمور الحياة الدنيوية العادية التى يمكن التساهل فيهـــا ، وإنما يمس أمور العقيدة الدينية المترسخة فى النفوس والمتغلغلة فى الأعماق . فهى بطبيعتها أمور حساسة . ومع ذلك ينبغى ألاَّ نتهيب أو نخاف من إجراء حوار حولها إذا ما توافرت الشروط الضرورية لذلك .

فإذا لم تفلح محاولات الحوار الدينى فى الوصول إلى نتائج فليس معنى ذلك أن تكون هناك قطيعة مع الآخرين . فليحتفظ كل بمعتقده ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [1] . ولكن طريق التعاون والتفاهم والحوار حول ما يجمع الإنسانية يظل طريقًا مفتوحًا . فلنترك ما يستحيل الاتفاق عليه ، ولنتجه إلى ما يمكن الاجتماع عليه بدءًا من التعارف وتفهُّم كل فريق لوجهة نظر الفريق الآخر فى احترام متبادل من أجل الالتقاء على مبادئ للتعاون المثمر لما فيه خير الإنسانية .

* * *

(١) سورة الكافرون : ٦ .

٤ـ مجالات الحوار مع الأديان الأخرى :

والسؤال المطروح الآن هو : ما هى القضايا التى يمكن أن تكون مجالاً للحوار مع أتباع الأديان الأخرى ؟

إن الإجابة عن هـذا السؤال يمكن تلخيصها بالإشارة إلى محورين أساسيين يشكلان بصفة رئيسية مجالات الحوار الدينى الممكنة :

أولهما : الحوار حول العقائد التى تشتمل عليها الأديان ، **وثانيهما** : الحوار حول ما تشتمل عليه الأديان من قيم إنسانية .

(أ) حوار حول العقائد :

لقد سـبق أن أشرنا إلى أن القرآن الكريم قد طرح أهم قضايا الدين موضوعًا للحوار ، ونعنى بذلك قضية وحدة الألوهية . ومع ذلك لم يلجأ إلى أسلوب التخويف أو الإرغام لفرض وجهة النظر الإسلامية ، بل أكد فى وضوح لا لبس فيه حرية الاعتقاد : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [١] .

فإذا لم يقتنع الطرف الآخر بما يلقى إليه من أدلة وبراهين فهذا شأنه ، ولا سبيل لأحد عليه . فكل صاحب معتقد متمسك بمعتقده وما ترسَّخ فى ذهنه منذ نعومة أظفاره .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

ولكن ليس معنى ذلك أن الأبواب قد سُدَّت ، وأن المنافذ قد أُغلقت وأننا وصلنا إلى مرحلة اليأس من احتمال إجراء حوار مثمر بين الإسلام والأديان السماوية الأخرى . فهناك مجال آخر للحوار يمكن أن يصل فيه الطرفان إلى نتائج إيجابية وهو مجال الحوار حول ما تشتمل عليه الأديان من « قيم إنسانية » .

(ب) حوار حول القيم الإنسانية فى الأديان :

وهذا مجال ثرى ، فالأديان كلها أتت من أجل خير الإنسان وسعادته في العاجل والآجل ، والقيم الدينية فى كل حضارة كانت هى الأساس للقيم الأخلاقية السامية والمبادئ الإنسانية الرفيعة . ومن هنا فإن الحوار حول ما يجمع أصحاب الأديان من قيم إنسانية مشتركة هو أفضل السبل لتفهُّم كل جانب للآخر، والتعاون البناء من أجل خير الإنسان وتقدمه واستقرار الأمن والسلام فى العالم . وعلى هذا النحو يمكن إقرار السلام بين الأديان الذى يُعد شرطًا لا مفر منه لإقرار السلام بين البشر.

ومن هنا لابد أن يكون الهدف القريب للحوار هو الوصول إلى شكل من أشكال التفاهم والتعاون المثمر ضد كل شكل من أشكال الإلحاد الذى يهدد كل الأديان ، وفى سبيل الخير العام للبشرية كلها للقضاء على الكثير من أشكال الصراع فى العالم .

وهذا من شـــأنه أن يجعل هدف الحوار النهائى هو التعايش السلمى الإيجابى بين الأديان بصفة عامة ، وبين الإســـلام والمسيحية بصفة خاصـــة . من أجل خير الإنسان من حيث هو إنسان حتى يعم السلام العالم كله .

* * *

٥ ـ الحوار مع المؤسسة الاستشراقية :

ويتصل بالحوار الإسلامى المسيحى قضية أخرى بالغة الأهمية تتمثل فى ضرورة الحوار مع المستشرقين فى الغرب .

فالحوار مع المؤسسة الاستشراقية الغربية يُعد أحد العناصر المهمة للحوار بين الإسلام والمسيحية لسبب مهم وهو أن الاستشراق فى الغرب نشأ أساسًا لخدمة أغراض دينية. وقد كان ذلك واضحًا عندما صدر قرار مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م بإنشاء أقسام للغة العربية فى خمس جامعات أوروبية هى جامعات باريس وأكسفورد وسلمنكا وبولونيا بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية ، كما أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى « جامعة كمبردج » عام ١٦٣٦م قد نَصَّ صراحةً على خدمة الهدف الدينى ، بالإضافة إلى الهدف التجارى أو الاقتصادى .

وإذا كانت الصبغة اللاهوتية للدراسات الاستشراقية حول الإسلام قد بدأ يحل محلها بالتدريج منذ منتصف القرن التاسع عشر صبغة علمية أكاديمية ، فإن استمرار الاستشراق فى الاشتغال بالإسلام والعلوم الإسلامية كانت نتيجته أن أصبح لدى الغرب الآن كم كبير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام لها تأثيرها الكبير فى أوساط المؤسسات الدينية الغربية .

ومن هنا فإن الحوار مع المؤسسة الاستشراقية يدعم – من غير شك – الحوار الإسلامى المسيحى ، ولا يجوز تجاهله لأن الدراسات الاستشراقية تدلى برأيها فى كل خصوصيات الإسلام دينًا وحضارةً وتاريخًا . وتُعد هذه الدراسات أهم المكونات لتصورات المؤسسات الدينية الغربية عن الإسلام .

* * *

ضرورة التعاون بين الأديان :

لا جـــدال فى أن تحقيق الأهداف المرجوة من الحوار بين الأديان يتوقف على مدى استعداد ممثلى هذه الأديان للتعاون فيما بينهم من أجل إنقاذ البشرية من الأخطار التى تتهددها. فقد جاءت الأديان لإصلاح البشر والأخذ بيدهم إلى ما فيه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم. ولا خلاف بين الأديان السماوية فى هذا الهدف. فكلها تمثل حلقات متصلة، وإذا كانت كل منها تتخذ طريقًا مختلفًا فإنها فى النهاية تتحد فى الهدف . ولا يمكن أن تتناقض رسالات هذه الأديان ، لأن جوهرها واحد ومصدرها جميعًا واحد .

وهناك عناصر كثيرة مشتركة بين هذه الأديان . فما يجمع بينها أكثر بكثير مما يفرّق بينها . والحوار الإسلامى المسيحى – على سبيل المثال – يجب أن يركز على القواسم المشتركة بين الديانتين ، وقد أشـــار القرآن الكريم إلى ثلاثة أسس مهمة مشتركة بينهما وهى : **الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح** [1] ، الذى هو تطبيق للمنظومة الأخلاقية المشتركة. وهذه الأسس يمكن أن تشكل ركيزة راسخة للانطلاق منها نحو

---

(١) راجع الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦٢] .

التعاون المطلوب . فهناك مشكلات كثيرة مشتركة فى عالمنا المعاصر لا يمكن حلها إلا بالتعاون بين الإسلام والمسيحية على وجه الخصوص .

ومن بين هذه القضايا على سبيل المثال لا الحصر - قضية دور الأديان فى حماية السلام العالمى ، والتعاون فيما بينها من أجل منع الحـــروب التى لا مبرر لها ، والحيلولة دون تخريب الموارد الاحتياطية للأرض نتيجة حروب عبثية لا معنى لها ، وإيقاف الحروب الدينية التى تضطهد البشر ظلمًا وعدوانًا ، وتضطهد شعوبًا بأكملها بسبب العقيدة ، والتعاون الفعال فى محاربة الإرهاب والتطرف فى كل مكان فى العالم ، والانتصار للحق والعدل بالوقوف مع الحقوق المشروعة للشعوب المظلومة، بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية، والتعاون كذلك فى حماية مؤسسة الأسرة التى تمثل الخلية الأولى لكل حضارة إنسانية معروفة لنا ، والتى تتعرض اليوم للانهيار .

ومن البديهى أن التعاون بين الأديان لا يمكن أن يتحقق ما دامت الأديان تنظر صامتة إلى شعوب كاملة تتعرض بسبب عقيدتها للقهر والاضطهاد اللاإنسانى . ولهذا فإن الاستناد إلى معلومات صحيحة عن الأديان وعن العناصر المشتركة بينها من

شأنه أن يساعد على اتخاذ المواقف الدينية الصحيحة التى تتسم بالتسامح والعدل .

إن هناك - على سبيل المثال - إرهابًا وتطرفًا فى كل ربوع العالم ، لا فى العالم الإسلامى وحده ، كما يزعم البعض . وسيتبين لكل إنسان يسعى لمعرفة الحقيقة الموضوعية أن الإسلام - الذى هو دين السلام - يرفض رفضًا مطلقًا كل شكل من أشكال الإرهاب والتعصب ورفض الآخر .

ومن المعروف أن كل سورة من سور القرآن الكريم تبدأ بالبسملة التى تتضمن التوجه إلى الله الرحمن الرحيم . ورحمة الله - سبحانه وتعالى - فى نظر الإسلام تشمل البشر جميعًا دون استثناء . ومن هنا فإن عليهم فى المقابل أن يسعوا إلى تحقيق العدل والسلام .

* * *

دور الدين فى بناء الإنسان (*) :

وقبل أن ننهى حديثنا عن الحوار الإسلامى المسيحى نود أن ننبه إلى دور بالغ الأهمية لكل دين على حدة فى تهيئة الظروف الملائمة لإنجاح أى حوار دينى . ونعنى بذلك توعية أتباع كل دين بأهمية دور الدين فى بناء الإنسان ، وحثهم على التعاون المثمر مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى من أجل مصلحة الجميع .

ونود فى هـذا الصدد أن نبين هذا الجانب فى التصور الإسلامى حتى تتضح الصورة الحقيقية للموقف الإسلامى من الحوار بين الأديان من منطلق نظرة الإسلام إلى الإنسان ودور الدين فى بناء الإنسان .

نظرة الإسلام إلى الإنسان :

وعندما نتحدث عن دور الدين فى بناء الإنسان من وجهة النظر الإسلامية فلابد لنا فى هذا الصدد من أن نتعرف أولاً على نظرة الإسلام للإنسان، ومن خلالها سيتضح لنا مدى الدور الحاسم الذى يقوم به الإسلام فى بناء الإنسان .

(*) هذا الجزء من البحث يُعد إضافة واستكمالاً لبحث (الحوار الإسلامى المسيحى) .

لقد خلق الله الإنسان – مثلما خلق بقية الكائنات الحية – من تراب ، أى : من مادة . ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى اختصه الله بأن نفخ فيه من روحه هو ، كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (١) .

وقد كانت هذه النفخة الروحية الإلهية أساس التكريم الإلهى الذى اختص الله به الإنسان . وقد تجلّى هـذا التكريم فى اختيار الله للإنسان ليكون خليفة له فى الأرض ليقوم بإعمارها ماديًا وروحيًا ، أى : ليصنع فيها حضارة مزدهرة تتكامل فيها المادة والروح على نحو بعيد عن الغلو والتطرف .

وهـذا التزاوج بين المادة والروح هو محور التكوين الإنسانى ، وبناء الإنسان يقوم عليهما معًا . وتعاليم الدين من شأنها إقامة التوازن بينهما . وتلك هى وسطية الإسـلام التى وصفها النبى عليه الصلاة والسلام بأنها سنته التى ينبغى على المسلمين اتباعها محذرًا فى الوقت نفسه من يحيد عنها بقوله : **[فمن رغب عن سُنَّتى فليس منِّى]** (٢) . وقد انعكست هذه

---

(١) سورة ص: ٧٢ ، وسورة الحجر :٢٩ .

(٢) متفق عليه .

الوسطية على التشريعات الإسلامية . والذى يجتاز هذا الاختبار الصعب بنجاح يكون جديرًا حقًا بالتكريم الإلهى الذى لم يحظ به كائن آخر غير الإنسان .

وحتى يستطيع الإنسان القيام بمهمته فى إعمار الكون وصنع الحضارة فيه سلَّحه الله بالعلم . فقد زوَّد الله آدم - الذى هو رمز للبشرية كلها - بالعلم قبل أن يهبطه إلى الأرض . وبهذا العلم بمعناه الشامل لكل الأبعاد أصبح الإنسان قادرًا على ممارسة دوره الحضارى فى هذا الكون . ومن هنا جعل الإسلام العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ومن ناحية أخرى فإن الإنســان لكى يكون جديرًا حقًا بخلافته لله فى الأرض ينبغى عليه أن يتخلق بأخلاق الله ، كما جاء فى الأثر : **[تَخَلَّقُوا بأخلاق الله]** (١) . فإذا كان الله قد أمر بالعدل وكتب على نفسه الرحمة فإن على الوكيل - وهو الإنسان - أن يتخلق بخلق الرحمة ، وأن يقيم العدل بين الناس ، حتى ولو على نفسه أو الأقربين . وهكذا الشأن فى بقية الصفات الإلهية التى ينبغى على الإنسان أن يتمثلها ويسير على هداها ، ويتأسى بكل ما تحمله من معانى الحق والخير والجمال .

وحتى يصل الإنسان إلى هذه المرتبة فإن عليه أن يعمل على استقامة صلاته بنفسه وبالله وبالناس وبالعالم الذى يعيش

---

(١) المقصد الأسنى : ١/١٥٠ .

فيه ، الأمر الذى يؤدى إلى أن يصبح بحق جديرًا بأن يكون وكيلاً عن الله فى الأرض يقيم فيها موازين العدل ، ويرسى دعائم الحق ، ويزرع الخير الذى تعود ثمرته على الناس دون تمييز .

دور الدين فى بناء الإنسان :

وإذا كانت هذه هى نظرة الإسلام إلى الإنسان . فإن الدين من شأنه أن يُذكِّر الإنسان بذلك كله . ومن هنا وجدنا القرآن يأمر النبى – عليه الصلاة والسلام – بأن يذكِّر الناس بالقرآن وبما يشتمل عليه من تعاليم : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾[1] وينبهه إلى أنه مُذكِّر كما جاء فى آية أخرى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2] ويشير القرآن الكريم إلى أن الله يبين آياته للناس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3] .

وإذا تذكَّر الناس آيات الله وتعاليم الدين وعملوا بما جاء فيها أدى ذلك بطبيعة الحال إلى خلق أجيال من المؤمنين

---

(١) سورة ق : ٤٥ .

(٢) سورة الغاشية : ٢١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٢١ .

الواعين بمسئولياتهم ، الفاهمين لدورهم فى الحياة ، الساعين إلى كل ما فيه الخير للحياة والأحياء . وبذلك يمثل الدين طوق النجاة للبشر ليعودوا إلى رشدهم ويصححوا مسارات حياتهم ويتعاونوا جميعًا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

والذى ينظر فى أحوال عالمنا المعاصر وما يموج فيه من حروب ، وما يحيط به من مشكلات على المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية يتضح له – بجلاء – مدى حاجة البشرية لهداية الدين لإنقاذ البشرية من هلاك محقق .

إن المجتمع الإنسانى مجتمع متشابك فى علاقاته ، ويمثل وحـــدة واحدة تجمع البشر جميعًا فى إطار واحد . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بأن الناس جميعًا قد خُلقوا من نفس واحدة . ونحن فى عصرنا الحاضر نردد كثيرًا بأننا قد أصبحنا نعيش فى قرية كونية واحـــدة . وهذا يعنى أن مصير البشرية كلها مصير واحد مشترك ، وقد شبَّهه النبى عليه الصلاة والسلام –كما سبقت الإشارة إلى ذلك – بمصير قوم اجتمعوا فى سفينة واحدة . وقد استقر بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها . وكان الذين فى أسفل السفينة يأخذون حاجتهم من الماء بالصعود إلى أعلى الســفينة . وقد أرادوا أن يريحوا أنفسهم من عناء الصعود والهبوط وقرروا إحداث خرق فى السفينة يأخذون

منه حاجتهم من الماء . ويحذِّر النبى ﷺ من مغبَّة ذلك مشيرًا إلى أنه إذا ترك الناس هؤلاء القوم يفعلون ما يريدون هلك جميع ركاب السفينة ، وإن أخذوا على أيديهم ومنعوهم مما أرادوا نجا الجميع من غرق محقق .

وهذا يعنى أن إنقاذ البشرية من الهلاك يتحقق عن طريق التضامن بين البشر والتعاون فى سبيل دفع الأخطار وجلب المنافع من أجل خير الجميع وأمنهم واستقرارهم . والدين يمثل طوق النجاة لإنقاذ البشرية .

ومن هنا فإن المهمة الملقاة على عاتق رجال الأديان مهمة ثقيلة ومسئولية كبيرة . وهم فى عالم اليوم أمام اختبار حقيقى لإثبات قدرتهم على العمل من أجل إقامة السلام بين البشر . فهل هم فاعلون ؟

إن الحوار بين الأديان يمثل خطوة على الطريق الصحيح ، والآمال المعقودة على الحوار على جميع المستويات آمال كبار، ولكن الأهداف المرجوة لا تتحقق بمجرد الأمنيات ، وإنما بالعمل الدؤوب والتعاون المخلص من أجل خير الناس ، كل الناس ، فى كل زمان ومكان .

وإذا صح عزمنا على أن نقيم حوارًا سليمًا بين الأديان ، فينبغى ألاَّ ننفخ فى نار الكراهية وعُقد الماضى من جديد .

وأجدر بنا أن نفكر تفكيرًا إيجابيًا يتجه إلى صياغة مستقبل ينعم فيه العالم بالسلام الضرورى .

إننا نواجه اليوم أجيالاً جديدة وبالتالى عوالم جديدة ، أجيالاً لا تُلام على مظالم العصور الماضية التى لم ترتكبها، ولا تُمتدح على الإنجازات الإيجابية التى أنجزها السابقون . إن ما تحتاج إليه الأجيال الجديدة منا هو ألا نُضيع عليها فرصة بناء حياة خصبة ، بل علينا أن نقدم إليها العون على ذلك .

* * *

(ب) حرية الاعتقاد والاعتراف بالآخر (*)

تمهيد :

قبل أن أبدأ فى عرض التصور الإسلامى لحرية العقيدة والاعتراف بالآخر ودور زعماء الأديان فى ترسيخ دعائم السلام فى العالم أود أن أذكّر ببعض الحقائق العامة الداعمة لهذا التصور :

١ - من الحقائق البديهية أن الكائن البشرى لا يستطيع أن يعيش فى هذا الوجود منفصلاً تمامًا عن الآخرين. فهو فى حاجة إليهم للاستمرار فى الوجود . ومن هنا قيل فى تعريف الإنسان إنه كائن اجتماعى . وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الجماعات وعلى الأمم والشعوب . ومن أجل ضمان السلام والاستقرار فى هذا العالم الذى نعيش فيه لابد من أن يتعاون الجميع لتحقيق هذا الهدف . وإذا كان ذلك أمرًا ضروريًا فى الماضى لضمان تبادل المنافع والمصالح فإنه قد أصبح الآن فى عصر العولمة أكثر إلحاحًا من ذى قبل ، وبخاصة أننا نعيش

(*) ألقيت هذه الكلمة فى المؤتمر الدولى الثانى للحوار بين الأديان الذى عقد بمدينة اصطانا بجمهورية قازاخستان فى الفترة من ١٢-١٤/٩/٢٠٠٦م .

الآن – كما يقال كثيرًا – فى قرية كونية كبيرة ، يعتمد كل من فيها على الآخر بصورة من الصور .

٢ – ومن الحقائق البديهية أيضًا أن الأديان فى العالم لها تأثير عميق فى نفوس الأفراد والجماعات ، هكذا كان الحال فى السابق ولا يزال كذلك حتى اليوم . ومن هنا فإن الأمر يتطلب تعاونًا أوثق بين الأديان فى العالم ، وتقاربًا أعمق ، وتحاورًا أشمل للإسهام بفاعلية أفضل فى تحقيق أمل البشرية فى السلام والأمن والاستقرار .

واستنادًا إلى هاتين الحقيقتين أرى أن اجتماعنا اليوم فى هذا المؤتمر للمرة الثانية خلال ثلاث سنوات بمبادرة كريمة من جمهورية قازاخستان يدل دلالة واضحة على الوعى بالمسئولية الملقاة على عاتق زعماء الأديان للقيام بما يمليه عليهم الضمير الدينى نحو أمن وسلام هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا . والوسيلة المثلى واللغة الحضارية الوحيدة التى يمكن استخدامها فى هذه المهمة الإنسانية الجليلة هى الحوار القائم على الاحترام المتبادل والفهم المشترك، وذلك على المستويين الدينى والحضارى .

وقد اعتمد الإسلام الحوار الدينى والحضارى منذ بداياته الأولى قاعدة أساسية للتعامل مع أصحاب الديانات والحضارات

الأخرى ، وهـذا يعنى - بطبيعة الحال - **الاعتراف بالآخر** وما له من حقوق أساسية من بينها **حرية الاعتقاد** ، ويعنى أيضًا **التسامح** فى التعامل مع كل البشر دون تمييز. وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل . ولتوضيح الموقف الإسلامى فى هذا الصدد فإن علينا أن نتناول بالبحث - بإيجاز شديد - بعض النقاط الأساسية التى ينبنى عليها هذا الموقف ، وتتمثل هذه النقاط فى الأمور التالية :

١ - **وحدة الأصل الإنسانى .**

٢ - **الاعتراف بالآخر .**

٣ - **حقوق الإنسان .**

٤ - **حرية الاعتقاد .**

* * *

أولاً : وحدة الأصل الإنسانى :

أما عن النقطة الأولى وهى وحدة الأصل الإنسانى فإنها تمثل القاعدة الأساسية فى الإسلام للاعتراف بالآخر ، وقد جاء النص عليها واضحًا وصريحًا فى القرآن الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [1] . فأصل الجميع واحد ، وكل فرد من أفراد البشر يُعد جزءًا لا يتجزأ من هذه النفس الإنسانية الواحدة ، وهذا يعنى فى المحصلة النهائية شعورًا تضامنيًا مشتركًا بين البشر جميعًا بوصفهم أعضاء فى أسرة واحدة . ومن هنا فالناس جميعًا على اختلاف شعوبهم ومعتقداتهم وأعراقهم ولغاتهم إخوة فى الإنسانية. والأخوة فى الإنسانية أشمل من الأخوة فى النسب أو الأخوة فى العقيدة .

وقد أكد الإسلام هذه الحقيقة تأكيدًا واضحًا ، وجعل منها أساسًا راسخًا لعدم التمييز بين البشر . فجوهر الإنسان واحد فى كل زمان ومكان. ويذكِّر القرآن الكريم دائمًا بهذا الأصل الواحد

---

(١) سورة النساء : ١ .

للبشرية حتى يستقر فى وعى الجميع بأنهم إخوة لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح .

والإسلام إذ يؤكد هذه الحقيقة فإنه من ناحية أخرى يقرُّ الوجه الآخر لها وهو التنوع فى المجتمع الإنسانى . فلكل أمة خصائص تميزها وتُعرف بها .

وهذا التنوع سنة الحياة . وهو يعنى التعددية على جميع المستويات الدينية والحضارية والاجتماعية والسياسية وغيرها . ومن شأن هذا التنوع أن يؤدى إلى التفاعل الخلاق الذى يؤدى بدوره إلى الإبداع المستمر والتجديد المتواصل والتقدم فى جميع المجالات الحياتية للناس أفرادًا وجماعات .

وهكذا نجد أنه على الرغم من الأصل الواحد لجميع الأمم والشعوب فإن الخالق قد أراد لكل إنسان أن تكون له شخصيته الخاصة التى يتميز بها عن الآخرين بشكل من الأشكال، وأعطانا رمزًا معبرًا عن هذه الحقيقة يتمثل فى عدم اتفاق شخصين فى هـذا الوجود فى بصمة إبهامهما . ومع اعتراف الإسلام بهذا التنوع فإنه يؤكد على أنه لا يجوز إغفال أو نسـيان الأصل الواحد للبشرية، لما للوعى بذلك من دور مهم فى تحقيق التعاون والتضامن بين الناس، وبالتالى تحقيق السلام والأمن والاستقرار فى المجتمع البشرى .

ومن أجل ذلك يؤكد الإسلام أن الاختلافات بين البشر أيًّا كانت لا يجوز أن تكون منطلقًا للنزاع والشقاق بين الناس ، بل ينبغى أن تكون منطلقًا للتعارف والتواصل والتآلف والتعاون بين البشر . وهذا ما أكّده القرآن الكريم فى قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

ثانيًا : الاعتراف بالآخر :

ومن هذا المنطلق يقرر الإسلام - بما لا يدع مجالاً للشك- ضرورة الاعتراف بالآخر بوصفه جزءًا لا يتجزأ من النسيج الإنسانى الواحد، كما ينظر إلى التنوع بين البشر على أنه مصدر إثراء للمجتمع الإنسـانى ، فمن شأن هذا التنوع فى العقائد والأعراق واللغات والعادات والتقاليد أن يدفع الناس إلى التنافس فيما بينهم فى كل ما من شأنه أن يفيد البشـرية ويعمل على تقدمها وازدهارها وإغناء تجاربها. وهذا ما يطلبه القرآن الكريم عندما يقول :﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (١) .

وبدون هذا التنوع فى المجتمع الإنسانى على المستويات الدينية والفكرية والثقافية تصبح حياة الناس حياة باهتة تسير على وتيرة واحـدة لا طعم لها ولا لون . فالآخر المختلف بالنسبة لى ليس بالضرورة عدوًا ، ولا هو الجحيم - كما كان يعتقد الفيلسوف الوجودى جان بول سارتر - وإنما هو يمثل عنصر إثراء لا يجوز إنكاره للتجربة البشرية ، وحافزًا مهمًّا للتفاعل الفكرى والتواصل الحضارى بين الناس بهدف البحث عن أفضل السبل للوصول إلى مزيد من التقدم والارتقاء بالمجتمع الإنسانى .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٨ .

وتلك هى الطبيعة الحقيقية للمجتمع الإنسانى . ولكن نظرًا لأن الإنسان يتمتع بالحرية وليس مصبوبًا فى قالب واحد جامد فإن استخدامه لهذه الحرية قد يكون استخدامًا سيئًا يتعارض مع حرية الآخر فيكون النزاع ويتولد الصراع وتنشأ بسبب ذلك الحروب والنزاعات [1].

وهنا تأتى مهمة الأديان ، أو بتعبير أدق : مهمة زعماء الأديان فى إعادة التوازن وترسيخ أسس السلام والأمن والاستقرار بين الناس . فالأديان فى جوهرها دعوة إلى السلام والمحبة بين البشـــر . وأحيانًا تظهر بعض التيارات المتطرفة التى ترفع شعارات دينية وتخرق فى الواقع الفعلى كل قيم الدين . وهذا يتطلب من زعماء الأديان إبراز الصورة المشرقة لرسالة الدين وغرسها فى النفوس وتعليمها للناس حتى يسود الحب والوئام بين البشر .

ومن المعلوم أن الديانات لها عمق عميق فى نفوس المؤمنين بها ، كما أن زعماء الأديان يحظون فى الغالب بالاحـــترام والتوقير لدى أتباعهم . ومن هنا فإن دورهم بالغ الأهمية فى توجيه سلوك هؤلاء الأتباع الوجهة السليمة بهدف القضاء على

---

(١) سبقت الإشارة فى التمهيد للقسم الثالث إلى بعض المعانى الواردة هنا. ولم نشأ أن نحذف شيئًا منها لأنها جزء من هذه المحاضرة .

روح التعصب والكراهية للأديان والمعتقدات الأخرى ، وإشاعة روح التسامح والاحترام من أجل تحقيق سلام واستقرار العالم الذى هو عالمنا جميعًا . فما أكثر الحروب التى نشبت فى كثير من مناطق العالم باسم الدين والدين منها برىء .

إن الموقف الذى يتخذه الإسلام من قضية الاعتراف بالآخر موقف ثابت لا يتزعزع . ودعوته إلى السلام والتعايش الإيجابى بين الناس أمر قرره القرآن الكريم ودعا إليه فى آيات صريحة واضحة وضـــوح الشمس . فما دام الآخرون لا يعتدون علينا ولا يسيئون إلينا فعلينا أن نتجاوب معهم وذلك بالتعامل معهم بالعدل والبر . ومفهوم البر فى القرآن مفهوم شامل لكل خصال الخير . وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (١).

فالإسلام - إذن - لا يكتفى بمجرد الاعتراف بالآخر ، أو التعامل معه بطريقة حيادية ، ولكن يأمر بالتعايش الإيجابى معه ومعاملته بالعدل والبر . وذلك كله من أجل قيام مجتمع إنسانى يسود فيه الأمن والسلام والاستقرار .

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ .

ثالثاً : حقوق الإنسان :

واعتراف الإسلام بالآخر على هذا النحو يعنى الاعتراف بحقوقه الإنسانية العامة ، وبكل الضمانات التى تحمى هذه الحقوق وتصونها من أى مساس بها بأى شكل من الأشكال .

وقد أعلن الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان ضرورة الإقرار بحقوق الإنسان العامة التى تشمل البشر جميعًا بلا استثناء ، على أساس المساواة المبدئية بين الناس جميعًا ، وبناء على الكرامة والحرية الفطريتين . ومن هنا ينظر الإسلام إلى هذه الحقوق على أنها ضرورات إنسانية لا يجوز التهاون بشأنها أو المساس بها .

ومن أجل ذلك وضعت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة تُعد ضمانات لحماية حقوق الإنسان الأساسية . وهذه المقاصد - المعروفة لكل دارس للشريعة الإسلامية - هى حماية النفس والعقل والدين والمال والنسل .

وإذا كان الناس فى أصل خلقتهم وفى جوهرهم متساوين فإن حقوق الإنسان تشملهم جميعًا دون تمييز ، ولا يجـوز أن يتعالى شعب على شـعب آخر ، أو تعتقد أمة من الأمم أن لها امتيازًا إنسانيًا أو أفضلية على غيرها وأن لها وحدها الحق فى السيادة على الأمم الأخرى .

فالناس جميعًا سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى – كما جاء فى حديث نبوى شريف [1] .

والمتتبع لقضية حقوق الإنسان فى الإسلام يجد أن هذه الحقوق تنبنى على أصلين أساسيين هما الحرية والمساواة . ومنهما تتفرع بقية الحقوق الأخرى .

والحرية حق طبيعى يكتسبه الإنسان منذ ولادته وليس منحة من أحد من البشر . ومن هنا كان قول الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب لمن اعتقد أنه يمتاز على الآخرين وأن له حقوقًا فوق حقوقهم :

" **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟** "[2] .

وإذا كان الأمر كذلك فإن من حق كل إنسان أن يقرر لنفسه فى حياته ما يشاء دون ضغط أو إكراه من أى جهة كانت ما دام لا يعتدى على حقوق الآخرين وعلى حرياتهم .

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) راجع : كنز العمال جـ ١٢/٢٩٤ .

رابعًا : حرية الاعتقاد :

والحرية الدينية أو حرية الاعتقاد تندرج فى إطار حقوق الإنسان العامة التى يعتبرها الإسلام مبادئ ثابتة وقواعد قاطعة يقوم عليها كل نظام اجتماعى عادل . ويشهد التاريخ أن الإسلام لم يكتفِ بإقرار حقوق الإنسان وإعلائها ، بل أدخلها بنجاح باهر فى البلاد التى كان المسلمون يحكمونها فى عصـــر الازدهار الحضارى الإســـلامى ، وأقر الإسلام حق كل إنسان فى اختيار عقيدته دون ضغط أو إكراه ، وتعايشت الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية فى الأندلس دون عوائق . ودخل الناس فى جنوب شرق آسيا والصين وغرب إفريقيا بمحض إرادتهم فى الإسلام . وظل المسلمون فى مصر بعد الفتح الإسلامى لها يشكلون أقلية بين السكان مدة قرنين من الزمان ، لأن الإسلام يرفض إجبار أحـــد على اعتناقه أو اعتناق أى عقيدة أخرى بالإكراه .

وقد أقر الإسلام التعددية الدينية فى المجتمع الإسلامى منذ البدايات الأولى للإسلام عندما هاجر النبى محمد ﷺ من مكة إلى المدينة التى أسس فيها مجتمعًا جـــديدًا يقوم على التعددية الدينية والثقافية ، وقد سجل ذلك فى وثيقة مهمة هى صحيفة المدينة التى تُعد أول دستور إسلامى يؤكد على حرية الاعتقاد منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان .

وقد أعلن الإسلام من خلال تعاليم النبى ﷺ وخلفائه من بعده أن لأسرى الحرب وسكان المناطق المفتوحة الحق فى أن يقرروا لأنفسهم وفى حرية تامة العقيدة التى يريدونها . وقد كتب النبى ﷺ فى إحدى رسائله إلى أهل اليمن :

[إنه من كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يُفتن عنها] (١) .

وهذا الموقف الإسلامى من حرية الاعتقاد ينبنى من ناحية على حق الإنسان الطبيعى فى الحرية ، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يرى أن إجبار إنسان على اعتناق عقيدة معينة لن يجعله مؤمنًا حقيقيًا ، بل سيجعل منه منافقًا . والإسلام بطبيعته يرفض النفاق والمنافقين . وتشتمل سور القرآن على سورة كاملة بعنوان (المنافقون) يحذِّر فيها القرآن من النفاق والمنافقين .

ومن أجل ذلك قرر القرآن مبدأً صريحًا فى هذا الصدد يقول : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (٢) . وجعل قضية العقيدة من اختصاص الإرادة الحرة للإنسان وذلك فى قوله :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ (٣) .

---

(١) رواه البيهقى فى سننه .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

ومن خلال هذه النصوص الصريحة -التى لا تقبل التأويل- يتضح مدى احترام الإسلام للحرية الإنسانية بصفة عامة وحرية الاعتقاد بصفة خاصة ، ومدى التزامه بمتطلبات هذه الحرية وتطبيقها فى دنيا الناس .

* * *

كلمــة ختاميــة :

وفى ختام كلمتى أود أن أؤكد مرة أخرى أن الإسلام يفتح صدره للحوار المثمر والتعاون البناء مع كل الديانات انطلاقًا من إيمانه الذى لا يتزعزع بحق كل فرد فى اختيار عقيدته ، ومن يقينه بأن الأديان تُعد طرقًا مختلفة ترمى إلى الوصول إلى الحقيقة الكبرى فى هــذا الوجود ، وتهدف إلى السمو الخلقى والرقىّ الروحى بالأفراد والجماعات .

وقد ترى بعض الأديان أنها وحدها التى تملك الحقيقة المطلقة وأنه بالتالى لا مجال لغيرها من الأديان . وهذا قد يمثل عقبة كبرى أمام أى حــوار . ولكن الأمر الذى ينبغى ألاَّ يغيب عن الأذهان أنه ليس مطلوبًا من أى دين أن يتنازل عن أى شىء من ثوابته التى يؤمن بها أتباعه. ويكفى أن الجميع فى كل الأحوال يشتركون فى السعى نحو الحقيقة الروحية ، ونحو تحقيق الخير للناس ، وتحقيق التوازن بين المادة والروح فى حياة الناس .

وهذا القدر المشترك من شأنه أن يتيح لكل دين الاعتراف بالآخــر والاعتراف بحقه الطبيعى فى اختيار عقيدته فى حرية تامة . وهذه القواسم المشتركة بين الأديان جميعًا تمثل قاعدة أساسية للحوار والتعاون فيما بينها . أما تفاصيل وجزئيات كل

عقيدة فهذا أمر ليس مطروحًا للنقاش ، ولا يمثل فى نظرنا عقبة فى طريق الحوار والتعاون بين الديانات من أجل تحقيق الهدف الأسمى وهو تحقيق السلام النفسى والاجتماعى والروحى للجميع.

* * *

(جـ) حوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان

تقـديـم :

تتضمن الصفحات التالية مناقشة هادئة لما صدر عن قداسة بابا الفاتيكان من هجوم لا مبرر له على الإسلام فى محاضرته بجامعة ريجنزبـورج الألمانية فى الثانى عشر من سبتمبر ٢٠٠٦م.

وقد نشر هذا الرد فى صحيفة الأهرام فى ٢٠٠٦/٩/١٨م وتم نشره بعد ذلك عن طريق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصحوبًا بترجمته إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية .

ونود أن نؤكد أن الإسلام كدين لا يمكن أن يهتز من جرَّاء أى هجوم عليه من أى جهة كانت صغرت أم كبرت . ومع إيماننا بهذه الحقيقة فإننا - نحن المسلمين - مسئولون مسئولية كاملة عن توضيح حقائقه والتعريف بتعاليمه والكشف عن زيف الشبهات التى يتعرض لها إحقاقًا للحق وإبطالاً للباطل .

والله ولى التوفيق ،،،،

عفوًا قداسة الحبر الأعظم

فى الثانى عشر من شهر سبتمبر ٢٠٠٦م استضافت دولة إسلامية هى جمهورية قازاخستان المؤتمر الدولى الثانى لزعماء الأديان العالمية والتقليدية من أجل تعميق الحوار والتفاهم والتعاون بين الأديان جميعًا ، الأمر الذى يدل على مدى تسامح العالم الإسلامى وتواصله مع كل الأديان. ومن المفارقات الغريبة أنه فى اليوم ذاته ألقى قداسة بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر محاضرة فى جامعة ريجنزبورج بألمانيا هاجم فيها الإسلام. وقد أحدث هذا الهجوم صدمة لدى الرأى العام الإسلامى فى كل مكان .

وعندما يتأمل المرء هذه المحاضرة يتساءل : لماذا أقحم البابا الدين الإسلامى فى محاضرته التى تحدث فيها عن العلاقة بين الإيمان والعقل فى المسيحية ؟

إنه مما لا شك فيه أن هذا الأسلوب فى الهجوم على دين من أعظم الديانات التى عرفتها البشرية - والذى يدين به خمس سكان العالم - لا يمكن أن يخدم أهداف الحوار الذى دعا إليه البابا فى نهاية محاضرته .

فهل أراد قداسة البابا أن يستغل هذه المناسبة فى اليوم التالى لذكرى أحداث الحادى عشر من سبتمبر للهجوم على

الإسلام وربطه بالتالى بالإرهاب دعمًا للفكرة السائدة فى الإعلام الغربى من الربط بين الإسلام والإرهاب . وتواصلاً مع مسلسل الرسوم الكاريكاتورية الدانيماركية ؟.. أم أراد أن يبرهن على تفوق المسيحية على الإسلام ؟

إن الأمر الجدير بالملاحظة أن قداسة البابا فى هجومه على الإسلام قد اعتمد على كتاب أصدره الأستاذ عادل تيودور خورى . وقد اقتبس البابا عدة مرات فى محاضرته مما قاله خورى ، والأستاذ خورى لبنانى الأصل عمل أستاذًا للاَّهوت فى جامعة مونستر بألمانيا ، وأعرفه جيدًا منذ ما يقرب من عشرين عامًا . وكثيرًا ما اشتركنا سويًا فى مؤتمرات دولية للحوار بين الأديان ، وله مؤلفات كثيرة عن الإسلام بالألمانية ، ولكن آراءه وتصوراته عن الإسلام لا تتفق فى كثير من الأحيان بطبيعة الحال مع تصورات المسلمين .

واعتماد قداسة البابا على كتاب خورى يذكِّرنا بالفيلسوف بسكال الذى قرأ كتابًا وحيدًا عن الإسلام لأحد المستشرقين وبنى على ذلك هجومه غير المبرَّر على الإسلام .

ومع كل التقدير والاحترام لشخص قداسة البابا بنديكتوس السادس عشر فإنى أود أن أبدى فيما يلى بعض الملاحظات على ما جاء فى محاضرته :

١ - ينقل قداسة البابا عن الأستاذ خورى ما دار من حوار حول الإسلام والمسيحية وحقيقة كل منهما بين القيصر البيزنطى مانويل الثانى وبين أحد المثقفين المسلمين . وقد كان ذلك فى شتاء عام ١٣٩١م .

وفى أحد هذه الحوارات تطرَّق القيصر لموضوع الجهاد أو ما يسمى (بالحرب المقدسة) ، ولا شك أن القيصر - كما جاء فى المحاضرة - كان على علم بما جاء فى سورة (البقرة): ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [١] ، التى هى إحدى السور المبكرة فى الوقت الذى كان فيه محمد ﷺ ضعيفًا ومهدَّدًا . ولكن القيصر كان يعرف أيضًا السور المتأخرة التى تتناول تشريعات الجهاد . ويسأل القيصر محاوره عن العلاقة بين الدين والعنف ، ويقول : " أرنى ما الجديد الذى جاء به محمد ؟ إنك لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الذى كان يبشِّر به بحدِّ السيف .. وهذا أمر يتناقض مع جوهر الله وجوهر الروح " والقضية الأساسية هنا ضد مبدأ فرض الدين بالعنف هى : إن عدم التصرف بعقلانية يناقض جوهر الله .

ويمضى خورى فيقول: "إن الله فى العقيدة الإسلامية مطلق السمو ومشيئته ليست مرتبطة بأى من مقولاتنا ولا حتى بالعقل".

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

ويدلل خورى على ذلك بما نقله عن مستشرق آخر (أرنالدز) على لسان ابن حزم الذى يزعم أن الله لا يتقيد حتى بكلامه ، وأنه لا يجب عليه أن يوحى إلينا بالحقيقة ، وإن أراد جعل الإنسان عابدًا للأصنام .

ومن الواضح أن قداسة البابا يوافق على ذلك كله ، حيث لم يرفض منه شيئًا بل أخذه على أنه كلام مسلَّم به ، وإن لم يقل ذلك صراحة .

ومن ناحية أخرى فإن ابن حزم – وهو من زعماء المذهب الظاهرى الذى يرفض العقل والمنطق – ليس حجة على الإسلام، وليس مرجعية يُعتدُّ بها لدى المسلمين . وقد رفض آراءه علماء العقيدة الإسلامية على اختلاف اتجاهاتهم . وعقيدة المسلمين لا تؤخذ إلا من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة . وما عدا ذلك من تصورات فهى وجهات نظر واجتهادات قد تخطئ وقد تصيب . ورحم الله الإمام الشافعى الذى كان يقول : " رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب " .

٢ – الإمبراطور البيزنطى فى حديثه عن الإسلام ليس من المرجعيات العلمية التى يُعتدُّ بها . فكلامه يُعَدُّ من قبيل الدعاية ضد دين الأعداء قبل أن يكون كلامًا دينيًا أو علميًا ، ولا يخرج هذا الكلام عن التصورات المشوَّهة عن الإسلام التى راجت فى

القرون الوسطى فى أوروبا، والتى كانت أيضًا مصدر معلوماته عن الإسلام ، ومن هنا لا يمكن - من الناحية الموضوعية - الاعتماد على كلام هذا الإمبراطور أو الاعتداد به والاستشهاد برأيه، ومن أجل ذلك دهشت ودهش العالم الإسلامى كله من اقتباس البابا الجليل - وهو الأستاذ الجامعى - العبارة المشار إليها والبناء عليها .

٣ - الحوار الذى عرض فيه الإمبراطور تصوره الغريب عن الإسلام كان الطرف الآخر فيه مثقف مسلم ، فماذا قال هذا المسلم ردًا على كلام الإمبراطور ؟

ألم يكن من العدل والإنصاف والنزاهة العلمية أن تُعرض الصورة كاملة حتى تتضح الأمور أمام الناس ؟ وإذا تم عرضها كاملة فإن ذلك من شأنه أن يعمل على تصحيح الأمور وتوضيح المواقف وإظهار الحقيقة .

٤ - أما الزعم بأن المشيئة الإلهية فى الإسلام منقطعة عن العقل وأن تصرفات الله لا تخضع للعقل ولا للمنطق فهذا أمر لا سند له من الواقع القرآنى ولا من واقع الاعتقاد الإسلامى . فالله قد أمرنا بكل الفضائل التى تتفق مع العقل والمنطق . وقد احترم الإسلام العقل الإنسانى وجعله فى أعلى منزلة وأرفع مكان ، وجعل الإنسان الذى لا يستخدم عقله بمنزلة إنسان قد

تنازل عن إنسانيته ، وجعل عدم استخدام العقل الإنسانى خطيئة كبرى سوف يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة .

والله قد بين لنا فى القرآن الكريم أنه خلق كل شىء بقدر ، وأن كل ما فى السموات والأرض يسير وفق سنن كونية . وأن كل خلق الله مرتبط بحكم بالغة . وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى النظر فى الكون ودراسته والتفكير فى آيات الله فى العالم وفى الإنسان . وأما أن إرادة الله وعلمه وحكمته لا تحدها حدود فهذا أمر منطقى لأنه هو نفسه الخالق . ولكن المسلم لا يفهم من ذلك مطلقًا أن تصرفات الله لا تتفق مع العقل والمنطق .

وفى ضوء هـذه التعاليم القرآنية سار علماء المسلمين ، فحجة الإسلام الغزالى يقول: « العقل أنموذج من نور الله » ويقول الجاحظ : « إن العقل وكيل الله عند الإنسان » . كما قرر علماء التوحيـد أن النظر العقلى يُعد أول واجبات المسلم فى مسائل الاعتقاد .

وقد اطلع المسلمون على الفلسفات القديمة ومنها اليونانية وناقشوها مناقشة عقلية وصانوها من الضياع ، وقد تعرفت أوروبا على الفلسـفة اليونانية لأول مرة عن طريق العلماء المسلمين من الترجمات العربية .

واعتمدت أوروبا على آراء الفيلسوف العظيم ابن رشد بصفة خاصة فى دعم الحركة العقلية التى مهدت لعصر النهضة الأوروبية لما عرفوا لديه من تقدير لا حَدَّ له للعقل والمعقول .

ومع هذا الاعتداد بالعقل والمعقول فإن المسلمين لم ينسوا أن الله هو الخالق الأعظم مالك الملك ، وأنه هو الذى وهبهم العقل ولكنه لم يسلبهم الإرادة بل حمَّلهم المسئولية بجعله الإنسان خليفة لله فى الأرض ليعمرها بالعلم ولا علم بدون عقل .

٥ - إن القرآن الكريم يرفض العدوان على الآخرين رفضًا قاطعًا ماداموا لم يسيئوا إلى المسلمين ، ويطلب من المسلمين أن يتعاملوا معهم على أساس من التعايش الإيجابى بالبر والعدل ، وآيات القرآن الكريم فى هذا الصدد صريحة وواضحة لكل باحث نزيه .

وقد أكد القرآن الكريم - بأسلوب الحصر - هدف الدعوة الإسلامية بقوله مخاطبًا النبى - عليه الصلاة والسلام - :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] فالرحمة عنوان الإســـلام . والإسلام مشتق من نفس الأصل الذى اشتق منه السلام . فهو دين السلام .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

والإسلام لا يعرف ما يسمى بالحرب المقدسة . والجهاد فى الإسلام شُرع لرد العدوان فقط - كما يقول القرآن - :

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾[1].

والجهاد الأكبر هو جهاد النفس . وكما يكون الجهاد بالنفس فى حالة الاعتداء على المسلمين فإنه يكون أيضًا بالعلم والمال وبكل عمل ينصف المظلوم ويقيم موازين العدل ويحضُّ على الفضائل وينهى عن الرذائل . وإن اختزال الجهاد فى الإسلام فى الحرب ضد الآخرين لنشر الإسلام بالسيف هو تفسير خاطئ لهذا المفهوم. فنشر الإسلام لا يكون إلا بالإقناع وبالحجة والبرهان . والإسلام لم ينتشر بالسيف -كما يُشاع- ولكن بقوته الذاتية، وكمثال على ذلك انتشار الإسلام فى جنوب شرق آسيا والصين عن طريق التجار المسلمين الذين لم يكونوا مسلَّحين لإرغام الناس على اعتناق الإسلام .

والشىء نفسه فى دول غرب إفريقيا التى انتشر الإسلام فيها عن طريق الصوفية دون قهر أو إرغام .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المسلمين حينما فتحوا مصر لم يرغموا أحدًا من أهلها على الدخول فى الإسلام ، ولذلك ظل

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

المسلمون فى مصر أقلية مدة قرنين من الزمان . وأىُّ تجاوزات أو انحرافات عن هذا الخط الواضح للإسلام لا يجوز إلصاقها بالإسلام بأىِّ حال من الأحوال .

وقد أنصف بعض الكتاب الغربيين الإسلام ورفضوا مقولة انتشاره بالسيف ، ومن بين هؤلاء المستشرق المعروف «توماس أرنولد» فى كتابه : « الدعوة إلى الإسلام » .

والقرآن نفسه يقرر منهج الدعوة إلى الإسلام بقوله :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

ومن رسائل النبى ﷺ إلى أهل اليمن :

[إنه من كان على يهودية أو نصرانية فلا يُفتن عنها](٢) .

والإسلام هو الدين الوحيد الذى قرر حرية العقيدة حين قال : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾(٣) . وسورة البقرة التى وردت فيها هذه الآية ليست من السور المبكرة -كما قيل- وإنما هى من السور

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(٢) سنن البيهقى .

(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ .

المدنية المتأخرة . وقد أحال الإسلام مسألة العقيدة إلى المشيئة الحرة للإنسان فى قوله تعالى :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) .

٦ - وإذا كانت المحاضرة تريد أن تلصق تهمة العنف بالإسلام فمن حقنا أن نسأل :

ألم تكن الحروب الصليبية عنفًا وإرهابًا وعدوانًا سافرًا على شعوب آمنة فى المنطقة العربية حينذاك ؟ وألم يكن الفاتيكان مساعدًا ومشجعًا وداعمًا لهذه الحروب التى راح ضحيتها آلاف المسلمين ؟ وألم يكن ذلك العنف مناقضًا للعقل ولطبيعة الله ؟

وعلى الرغم من ذلك فقد نأى المسلمون بأنفسهم عن تسميتها بالحروب الصليبية . وسمَّاها المؤرخون المسلمون « حروب الفرنجة » ، رافضين بذلك الربط بينها وبين المسيحية التى يعتقد المسلمون أنها دين سلام ومحبة .

٧ - أما عن علاقة الله بالإنسان فى الإسلام فإنها أعمق من أن يتصورها بشر . ويكفى أن نشير هنا إلى بعض ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الصدد :

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

يقول الله تعالى :

﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

وهذه الآيات - وغيرها كثير فى القرآن الكريم - واضحة بذاتها وليست فى حاجة إلى تعليق .

٨ - لقد سعدت بلقاء البابا يوحنا بولس الثانى عام ١٩٨٧م بمناسبة أول تجمُّع دينى تنظمه مؤسسة سانت إيجيديو . وقد كان

---

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة ق : ١٦ .

(٤) سورة الزمر : ٥٣ .

البابا الراحل داعمًا بقوة للحوار بين الأديان ، واستقبله الأزهر الشريف منذ حوالى خمس سنوات بكل الترحيب والتقدير . وفى عهده تم توقيع اتفاقية للحوار الدينى بين الأزهر والفاتيكان .

وقد استبشرنا خيرًا بخلفه البابا الحالى بنديكتوس السادس عشر آملين أن يسير على نهج سلفه من أجل مزيد من التعاون ودعم الحوار والتفاهم المشترك لتحقيق أمل البشرية فى السلام والاستقرار .

ولكن العالم الإسلامى كله قد أصيب بصدمة بالغة لتصريحات الحبر الجليل بابا الفاتيكان الجديد . فهل يرى قداسته أن ما صدر عنه من إساءة للإسلام من شأنه أن يدعم العلاقات الطيبة بين المسلمين والعالم الكاثوليكى ؟

لقد أحدثت كلمات البابا عن الإسلام جرحًا بالغًا فى قلوب المسلمين ولن يلتئم هذا الجرح إلا بعد فترة طويلة ، وبعد اعتذار واضح للمسلمين الذين يشكلون خمس سكان العالم . وفضلاً عن ذلك فإن كلام البابا يبين أن ما استقر فى الفهم الغربى عن الإسلام يشوبه الكثير من سوء الفهم والأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة . ليس فقط فى أوساط العامة ، بل فى أوساط المثقفين أيضًا . وهذا يعنى ضرورة الحوار لتصحيح الأفكار الخاطئة والقضاء على الأحكام المسبقة .

إن العالم اليوم أصبح يعيش فى قرية كونية صغيرة . وإذا أردنا أن نعيش معًا فى سـلام فلابد أن يسود الفهم المشترك والتقارب بين الأديان من أجل سـلام هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا . والأمر الذى ينبغى ألاَّ يغيب عن الأذهان أنه لن يكون هناك سلام فى العالم إلا إذا كان هناك سـلام بين الأديان . ولن يكون هناك سلام بين الأديان إلا إذا كان هناك حوار حقيقى بين الأديان ينأى بنفسه عن الغمز واللمز والتقليل من شأن الآخرين والاستهانة بمقدساتهم .

* * *

قائمة بأهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولاً : مؤلفات بالعربية :

١ - تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) ١٩٩٤م - دار المعارف بالقاهرة .

٢ - المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) ١٩٩٧م - دار المعارف بالقاهرة .

٣ - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ١٩٩٧م - دار المعارف بالقاهرة .

٤ - الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة.

٥ - الدين والحضارة (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة .

٦ - الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٧ - دراسات فى الفلسفة الحديثة - دار الفكر العربى .

٨ - مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية) - دار الفكر العربى .

٩ - مقدمة فى علم الأخلاق - دار الفكر العربى .

١٠ - مقدمة فى الفلسفة الإسلامية - دار الفكر العربى .

١١ - الإسلام فى مرآة الفكر الغربى - دار الفكر العربى .

١٢ - الإسلام فى عصر العولمة - مكتبة الشروق الدولية .

١٣ - الحضارة فريضة إسلامية - مكتبة الشروق الدولية .

١٤ - الإسلام وقضايا الحوار - مكتبة الشروق الدولية .

١٥ - الإسلام والغرب - مكتبة الشروق الدولية .
١٦ - هموم الأمة الإسلامية - دار الرشاد ومكتبة الأسرة .
١٧ - الإنسان والقيم فى التصور الإسلامى - دار الرشاد ومكتبة الأسرة .
١٨ - ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر ١٩٧٩م .
١٩ - الإسلام فى تصورات الغرب - مكتبة وهبة .
٢٠ - الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا (محاضرة) - مكتبة وهبة .
٢١- الإسلام وقضايا العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٢ - من أعلام الفكر الإسلامى الحديث - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٣ - الإسلام وقضايا الإنسان - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
٢٤ - قيم منسية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٥ - مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٦ - مفاتيح الحضارة وتحديات العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٧ - الفكر الدينى وقضايا الأمة الإسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٨ - المسلمون فى مفترق الطرق -دار الرشاد- القاهرة ٢٠٠٧م.

ثانيًا : مؤلفات باللغات الأجنبية :

١ – فى اللغة الألمانية :

أربعة كتب هى : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت ، مدخل إلى الإسلام ، قضايا حول الإسلام ، الإسلام وقضايا الحوار . وذلك بالإضافة إلى اثنى عشر بحثًا منشورة فى ألمانيا والنمسا ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٢ – فى اللغة الإنجليزية :

- ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك ، وكتاب : مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .
- ثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) ونيودلهى (الهند) وهى على التوالى :
- دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ، الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب ، السلام فى نظر الإسلام. وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ومكتبة الشروق الدولية البحوث الثلاثة الأخيرة بالإنجليزية فى كتاب بعنوان:

On Philosophy Culture and Peace in Islam

٣ - فى اللغة الفرنسية :

- ترجمة لكتاب: حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك .
- والحوار الإسلامى المسيحى .
- حوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٤ - فى اللغة القازاقية :

- ترجمة لكتاب: حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك .
- الإسلام وقضايا الحوار .

٥ - فى اللغتين الروسية والتايلاندية :

- ترجمة لكتاب: حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك .

٦ - فى اللغتين التركية والإندونيسية :

- ترجمة لكتاب : الاستشـــراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى.

٧ - فى اللغة البوسنية :

- ترجمة لكتاب : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت .

٨ - فى لغات أخرى :

وبالإضافة إلى ذلك تم ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوروبا إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى : قضية الحوار بين الأديان السماوية

الثلاثة ، إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام ، التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام ، السلام فى نظر الإسلام .

ثالثاً : مساهمات فى أعمال علمية أخرى :

- ترجمة كتاب : بوخينسكى : " مدخل إلى الفكر الفلسفى " من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى) .
- الاشتراك فى ترجمة كتاب بروكلمان : تاريخ الأدب العربى، إلى اللغة العربية .
- مراجعة على النص الألمانى لترجمة د . إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب : فلسفة التاريخ لهيجل .

* * *